موقع الدراسات
القبطية والأرثوذكسية

د. جورج حبيب بباوي

وِراثَةُ الخَطِيَّةِ أَمْ سِيادَةُ المَوْتِ؟

ردًا على مقال الأنبا بيشوي بعنوان الخطية الأصلية
بمجلة الكرازة في عدد ١٤ مارس ٢٠١٤

www.coptology.com

Coptology

مرةً ثانية ...

وِراثةُ الخَطِيَّةِ أَمْ سِيادةُ المَوْتِ؟

ردّاً على مقال الأنبا بيشوي بعنوان الخطية الأصلية

بمجلة الكرازة في عدد ١٤ مارس ٢٠١٤

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠١٤

www.coptology.org

إهداء

إلى قداسة البابا تواضروس الثاني (عطية الله)

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

وإلى

الآباء الأساقفة الأرثوذكسيين

من أعضاء مجمع كنيستنا أُمُّ الشهداء

وإلى

شهداء الكنيسة القبطية وقديسيها في كل عصر

راجياً بركة صلوات الجميع

تمهيد

لماذا الإصرار على الخطأ؟!!!

لا يريد الأنبا بيشوي مطران دمياط الخروج من مستنقع العصر الوسيط، ولا يعرف –مع فرض حسن النية– كيف يتخلص من اللاهوت المدرسي الذي لا ينتمي للكنيسة الأرثوذكسية التي يقوم فيها هو أسقفاً يُطلب من فمه التعليم الصحيح. ولا يدرك الأنبا بيشوي أن التعليم –في الكنيسة– ليس قضيةً شخصيةً، بل هو مسئوليته التي سوف يعطي عنها حساباً أمام من أقامه أسقفاً في كنيسته. وهذه المسئولية تتطلب منه أن يبذل الجهد تلو الجهد في البحث وراء الحقيقة الأرثوذكسية حتى يستطيع أن يفصِّل أو يقطع كلمة الحق باستقامة، أمَّا أن يستمر يعلِّم بما نبهنا أكثر من مرة، وفي أكثر من مقال على خطئه، وأثبتنا –من الكتاب المقدس والآباء والليتورجية وتاريخ العقيدة– عدم أرثوذكسيته، بل ويحاول لَي كلمات الكتاب المقدس والآباء إمعاناً في الإصرار على الخطأ، فهو ما لا نفهمه.

ولأنه يظن أن فكره الخاص به هو التعليم الصحيح، فقد خرج علينا نيافته بمقال نشره بمجلة الكرازة في عددها الصادر الجمعة ١٤ مارس ٢٠١٤ بعنوان: وراثة الخطية الأصلية، يقول فيه: "إن تجاسَر أحد ونقض فكرة وراثة الخطية، فإنه دون أن يدري ينفي إمكانية وراثة بر المسيح؛ لأن آدم هو أصل الجنس البشري القديم وصار السيد المسيح هو أصل المفديين ...".

وفي تدليله على صحة كلامه يلوي المطران عنق بعض عبارات للقديس بولس حتى تبدو وكأنها تدعِّم وجهة نظره. كما اقتطع بعض عبارات للقديس أثناسيوس من سياقها، وأورد ترجمةً مزوَّرة لفقرةٍ اقتبسها من الفصل العشرين في كتاب تجسد الكلمة، ونسب كذلك بعض عبارات للقديس كيرلس الكبير، دون ذكر المرجع، والقديس أغسطينوس. وسوف نناقش كل ما أورده المطران من اقتباسات فيما سيأتي.

على أن ما يلفت النظر بشدة في مقال المطران، ويقطع بالإصرار على الخطأ هو ذلك التمييز الذي أقامه بين ما أسماه الخطية الشخصية وخطية الطبيعة، ففي محاولته لتأصيل وجهة نظره، وإيهام القارئ بصحتها يقول: "نحن لا ننكر أن كل إنسان له حريته الخاصة ومسئوليته الخاصة، **فلا يمكن أن يرث الإنسان خطايا أبويه الشخصية** ... ولكن مفهوم وراثة الخطية الأصلية لا ينبغي أن يؤخذ بطريقة سطحية دون الدخول في عمق الموضوع في ضوء نصوص آيات الكتاب المقدس وأقوال الآباء والمجامع الكنيسة. وفي عرضنا لهذا الموضوع سوف نميز بين **الخطية الشخصية وخطية الطبيعة**".

وتعليقاً على هذه الفقرة نقدم بعض الملاحظات:

١– إذا كان المطران يتناول هذا الموضوع في ضوء نصوص الكتاب المقدس وأقوال الآباء والمجامع الكنسية، كما يقول، فنحن لا ندري حقاً من أين جاء بتمييزه بين الخطية الشخصية وخطية الطبيعة، وعلى أي أساس أقام هذا التمييز؟ فلا نصوص الكتاب المقدس، ولا أقوال الآباء، ولا المجامع الكنسية أقامت تمييزاً من هذا النوع. هنا يبدو المطران وكأنه يريد أن يوهم القارئ بأنه يمكنه الفصل بين الطبيعة البشرية وبين الإنسان الكائن الحي، وكأن الطبيعة البشرية يمكن أن توجد خارج الإنسان، أو كأن هناك مادة خام اسمها الطبيعة البشرية هي التي صنع منها الله الإنسان، وبالتالي، يمكن التمييز بين هذه الطبيعة والبشر!!!

٢- إذا كان من المستحيل أن توجد الطبيعة البشرية خارج البشر، وهو مستحيلٌ فعلاً، إذن لا يمكن أن تنشأ الخطية من كيان غير مشخصن لا عقل فيه ولا إرادة له. وبالتالي ليس هناك ما يسميه المطران بـــ "خطية الطبيعة". وإذا كان المطران يقول إنه "لا ينكر أن كل إنسان له حريته الخاصة ومسئوليته الخاصة فلا يمكن أن يرث الإنسان خطايا أبويه الشخصية"، إذن -وطبقاً لهذا التقرير- لا يمكن الكلام عن وراثة الخطية بالمرة.

الهرطقةُ الغنوسية هي اختيار المطران

في الحقيقة نحن في دهشة من أمر هذا المطران، فهل يدري أنه عندما يتكلم عن "خطية الطبيعة"، إنما يردد، لا ما جاء في نصوص الكتاب المقدس وأقوال الآباء والمجامع الكنسية، بل ما قالت به كلٌّ من الهرطقة الغنوسية والمانوية؟ فكلا الهرطقتين كانتا تعلِّمان بوجود إله للخير وإله للشر، وإن إله الشر هو الذي خلق المادة، فالمادة -إذن- بطبيعتها شريرة؛ لأنها نتاج إله الشر. والفرق الجوهري بين جميع الهراطقة والكنيسة الجامعة حول موضوع الشر، فرقٌ دقيق وخطير؛ إذ يعتقد الهراطقة أن الشر هو جزءٌ من الخليقة، وأن له جوهر وكيان خلقه إلهٌ شرير، أمَّا الكنيسة الجامعة، فتؤكد أن الشر بلا جوهر، وبلا كيان وأنه من اختراع العقل الإنساني، وأن الإنسان ليس بالطبيعة شريراً، وإنما يصبح هكذا إذا مارَسَ الشر. وحتى بعد السقوط، لم تعُد الطبيعة البشرية طبيعة شريرة، بل مريضة، وأن سقوط الإنسان أدخل عليها الشر والفساد والموت، فأصبحت في حاجة إلى الخلاص من الموت والفساد، وفي حاجة إلى الحياة الأبدية.

وهنا، إزاء ما سوف نعتبره جهلاً، وإزاء المنطق المتهافت الذي يحاول المطران أن يسوِّقه؛ لا يسعنا إلَّا أن نقدم هذه الفقرة للقديس أثناسيوس، والتي كتبها ضد أبوليناريوس، وكأنه يرد على المطران:

"كيف تفهمون الطبيعة الإنسانية بشكلٍ سليم، وأنتم تعتقدون أن الخطية جزءٌ من تركيبها وتكوينها، وإذا وصلتم إلى هذه النتيجة، أليس هذا هو ذات تجديف المانويين؟ إذا تمسكتم بهذه الآراء، فأنتم بذلك تنسبون الخطية إلى خالق الطبيعة، وكأن الله عندما خلق الإنسان الأول آدم، خلقه بطبيعةٍ خاطئة. وإذا صحَّ هذا، فلماذا حَكَمَ على آدم عندما أخطأ؟ وكيف قيل إنه لم يعرف الخير من الشَّر قبل سقوطه؟ ألم يُخلَق في البدء كصورة الله في عدم فساد، وجعله الله على صورة أزليته (حك ٢: ٢٤)، أي خلقه بطبيعة غير خاطئة وبإرادة حرة، ولكن بحسد إبليس دخل الموت إلى العالم بعد أن وجد الوسيلة التي أدت إلى المعصية؟ وهكذا بسبب عصيان وصية الله صار الإنسانُ مجالاً بَذَرَ فيه العدوُّ الزوان (مت ١٣: ٣٥)، وتسلَّطت الخطية بواسطة الأهواء على الإنسان ... المعصيةُ أدَّت إلى فساد الطبيعة الإنسانية وبسبب ذلك مَلَكَ الموتُ على كل البشر ... الله لم يخلق الإنسان خاطئاً، بل خُلق في عدم خطية، ولكن غواية الشيطان جعلته يعصي وصية الله، **فأخطأ للموت** .... وما الذي حكم الله عليه في البدء؟ هل على الخليقة التي صوَّرها الخالق وصنعها، أم على العمل الصادر من إرادة الخليقة؟ فإذا دان الله الخليقة التي خلقها، فقد دان نفسه، وأصبح في هذه الحالة مثل البشر"[١].

ونضيف إلى ذلك، أن القديس أثناسيوس سبق له أن أكَّد ذلك في كتابه تجسد الكلمة، حيث يقول: "كل ما هو شر، هو عدم، وكل ما هو خير فهو موجود"، والسبب في ذلك هو أن ما خلقه الله الصالح هو بالضرورة صالحٌ، فإذا أخطأ الإنسان، فالخطأ ناتج عن حرية الإرادة لا من الطبيعة التي خلقها الله الصالح (تجسد الكلمة: ٤

---

(١) راجع رد القديس أثناسيوس الرسولي على أبوليناريوس، تجسد ربنا يسوع المسيح، تعريب وتعليقات د. جورج حبيب بباوي، يناير ١٩٨٣، ص ٣٧ – ٣٨، ٤٤ نشرته مؤسسة القديس أنطونيوس، سلسلة كتابات الآباء. راجع أيضاً، وبنفس المعنى تقريباً: ظهور المسيح المحيي، وهو الجزء الثاني لرد أثناسيوس على أبوليناريوس، والذي نشرته مؤسسة القديس أنطونيوس في يناير ١٩٨٤، ص ٢٠ – ٢١.

- ضد الوثنيين: ٦).

٣- في تدليل المطران على أن الآباء يعرفون التمييز بين خطية الطبيعة والخطية الشخصية، يورد نصاً للقديس كيرلس -دون ذِكر المصدر- ينسب فيه للقديس كيرلس أنه قال: "وهكذا صرنا نحن أيضاً وارثين للعنة في آدم، لأننا بالتأكيد لم نعاقَب كأننا عصينا معه الوصية الإلهية التي استلمها، ولكن .. لأنه صار مائتاً فقد نقل اللعنة إلى البذرة التي ولدها. نحن أموات لأننا نبعنا ممن هو مائت". وينتهي المطران بعد هذا الاقتباس إلى "أن القديس كيرلس يميِّز بين الخطية الشخصية وخطية الطبيعة".

ولعلنا نلاحظ -بفرض صحة الاقتباس- ما يأتي:

أ- إن تعبير "نقل اللعنة إلى **البذرة** التي ولدها" هو تعبير من خيال الأنبا بيشوي، كما أن إسناده للقديس كيرلس يكشف عن كمٍّ هائل من التشويش وعدم الدقة؛ لأن هذا الأسلوب بالذات عن **نقل لعنة إلى بذرة**، هو أسلوب ينتمي إلى العصر الوسيط، لا إلى القرن الخامس الذي عاش فيه القديس كيرلس، وهو الأمر الذي يجعلنا نشك في النص الذي نسبه إلى القديس كيرلس، أو في أقل القليل نقطع بأنه زوَّر الترجمة لكي تخدم أغراضه في إثبات التعليم بوراثة الخطية.

ب- إن تعبير "خطية الطبيعة" -بفرض صحة الاقتباس- غير موجود في هذا الاقتباس على الإطلاق، بل والأغرب من ذلك أن كلمة الخطية ذاتها لم ترد في هذا الاقتباس مطلقاً، فالقديس كيرلس الكبير لم يتكلم أبداً على أننا نرث الخطية، بل قال: "نحن أموات لأننا نبعنا ممن هو مائت"، القديس كيرلس يتكلم هنا عن سيادة الموت على الطبيعة البشرية، لا عن وراثة الخطية.

ولعل النتيجة التي انتهى إليها المطران تعليقاً على هذا النص، تكشف لنا كيف يلوي عنق الكلام، فيجعل النص ينطق بما لم يقله، ويفتئت على النص بنتيجة لا تحملها مفرداته، وإن كان بإيراده نصوصاً للآباء، يريد أن يُوقِع القارئ غير المتدرب في وهم

أنه لا ينطق عن الهوى، وهو أبعد ما يكون عن الحقيقة. كل ذلك، في الوقت الذي يتهمنا فيه نحن بتزوير نصوص الآباء!!

على أننا لن نكتفي بمناقشة الاقتباس الذي أورده المطران ونسبه للقديس كيرلس؛ لأن ادعاءه بأن القديس كيرلس يعرف التمييز بين الخطية الشخصية وخطية الطبيعة – الأمر الذي يُستشف منه إيهام القارئ أن القديس كيرلس يعلِّم بوراثة الخطية– أثار حفيظتنا، وهو ما دعانا لأن نقدم لنيافته كلام القديس كيرلس الكبير الذي يسير في عكس اتجاه ما ادعاه عليه تماماً، وهو ما ورد بالفصل الثامن من كتابه: "ضد الذين يتصورون أن لله هيئةً بشرية"[١]، ففي هذا الفصل يطرح القديس كيرلس الأسئلة المثارة حول هذا الموضوع لكي يجيب عليها، فيقول:

> "لماذا يموت المشاركين لآدم في طبيعته، مؤدِّين عقاباً عن آبائهم؟ ولماذا يكون كل واحد منَّا مديوناً بسبب مخالفة ذاك؟ لماذا لم أرث الطهارة حين وُلِدتُ، بالرغم من أن والدي صار طاهراً من دين الخطية الجدية ومن خطاياه الخاصة، وصار حياً في المسيح وبواسطة الروح القدس؟ لماذا لم تُفِدْني نعمة البر التي قبلها هو ذاته، بالرغم من أن هذه النعمة هي أقوى جداً من الخطية؟".

واضح إذن من الأسئلة التي طرحها القديس كيرلس أن لغطاً حول الموضوع قد أُثير، وأن التباساً في الفهم قد شاع، وإلَّا لَما حمل القديس كيرلس عبء الرد على هذه الأسئلة. ونظراً لأهمية إجابة القديس كيرلس، وحسمها لهذا اللغط، نضع أمام القارئ هذه الإجابة كما وردت بالفصل الثامن، ومن ثمَّ نعلِّق عليها. يقول كيرلس:

> "ينبغي أن نفحص كيف نقل لنا آدم الأب الأول العقاب الذي لحقه من جراء مخالفته. اسمع: "لأنك تراب وإلى تراب تعود" (تك ٣: ١٩)، ومن

---

(١) القديس كيرلس الأسكندري، ضد الذين يتصورون أن لله هيئة بشرية، ترجمة عن اليونانية وتقديم وتعليقات د. جورج عوض إبراهيم، القاهرة، الطبعة الأولى، مايو ٢٠١٣.

غير الفساد صار فاسداً وخضع لقيود الموت. وعندما صار للإنسان الساقط بالفعل في الموت أولادٌ، أي هؤلاء الذين وُلدوا منه، وُلدِنا نحن فاسدين بما أننا أتينا من الفاسد. بهذه الطريقة نحن وارثون لعنة آدم. لكن على أية حال لم نُعاقَب لأننا مذنبين مع آدم وخالفنا الوصية التي أُوصي بها ذاك، لكن – كما قلت– لأن الإنسان حين صار مائتاً نقل اللعنة للأولاد الذين ولدهم. أي صرنا فانين من الفاني.

لذلك صار ربنا يسوع المسيح آدم الثاني، وبدايةً ثانيةً لجنسنا بعد آدم الأول. أعاد تشكيلنا وقادنا إلى عدم الفساد مُهيناً الموت ومبطلاً إياه في جسده. بالمسيح إذن انحلَّت قوة اللعنة القديمة. لأجل هذا أيضاً يقول بولس الحكيم: "فإنه إذ الموت بإنسانٍ بإنسان أيضاً قيامة الأموات" (١كو ١٥: ٢١)، وأيضاً: "لأنه كما في آدم يموت الجميع هكذا في المسيح سيُحيا الجميع" (١كو ١٥: ٢٢).

نستنتج إذن أن اللعنة الجامعة والعامة لمخالفة آدم هي الفساد والموت، وبالمثل الفداء الشامل (الجامع) للكل تحقق في المسيح. أي أن الطبيعة البشرية في المسيح قد خلعت الموت الذي كان يثقلها؛ لأن الإنسان الأول صار فاسداً.

لكن والد كل واحد مِنا، بالرغم من أنه قُدِّس من الروح القدس ونال غفران خطاياه، إلَّا أنه لا يمكنه أن ينقل لنا أيضاً العطية؛ لأن واحداً هو الذي يقدِّس ويبرر جميعنا ويُحضِرنا ثانيةً إلى عدم الفساد، هو ربنا يسوع المسيح. وبواسطة المسيح، هذه العطية تأتي بالتساوي لجميعنا. وكل واحد يحصل على غفران الخطايا من المسيح بواسطة الروح القدس. جميعنا قد تحررنا من العقاب الذي تثقَّلنا به في البداية –أقصد الموت– الذي امتد إلى الجميع مثل الإنسان الأول الذي سقط في الموت. لأجل هذا أيضاً يشير بولس الحكيم إلى أن الموت "قد مَلَكَ من آدم إلى موسى وذلك على الذين لم يخطئوا على شبه تعدي آدم الذي هو مثال الآتي" (رو ٥: ١٤). لكن

فيما بعد، عندما أشرق المسيح، أتى البر الذي بررنا بنعمة الله وأبعد الفساد عن جسدنا".

ونكتفي بلفت نظر القارئ العزيز إلى **الثوابت الأرثوذكسية** التي صاغها القديس كيرلس معبِّراً بذلك عن التعليم الرسولي السائد في الكنيسة الجامعة:

١– لا يعرف القديس كيرلس تعبير الخطية الأصلية، بل تعبير الخطية الجدية.

٢– إن العقاب الذي لحق آدم جرَّاء مخالفته هو العودة إلى التراب؛ لأنه من التراب، وصيرورته فاسداً وخاضعاً لقيود الموت.

٣– نحن وُلدنا فاسدين؛ لأننا وُلدنا للإنسان الساقط بالفعل في الموت، وهذا هو معنى أننا ورثنا لعنة آدم. ولعنة آدم، هي الموت؛ لأن الموت هو اللعنة.

٤– على أية حال، لم نُعاقَب لأننا مذنبين مع آدم وخالفنا الوصية التي أُوصي هو بها، وإنما لأن الإنسان حين صار مائتاً، نقل اللعنة للأولاد الذين ولدهم، أي صرنا فانين لأننا جئنا من الفاني.

٥– عندما صار ربنا يسوع بدايةً ثانيةً لجنسنا، أعاد تشكلينا في جسده وقادنا إلى عدم الفساد مهيناً الموت ومبطلاً إياه.

٦– اللعنة الجامعة والعامة لمخالفة آدم هي الفساد والموت. والفداء الشامل للكل تحقق في المسيح.

٧– لا يمكن لأي والدٍ لنا أن ينقل لنا عطية التقديس بالروح القدس، ولا غفران الخطايا التي حصل هو عليها؛ لأن واحداً هو الذي يقدِّس ويبرر الكل، ويُحضرنا إلى عدم الفساد، وهو ربنا يسوع المسيح، ولأن الإيمان نفسه، بالرغم من أنه هو طريق التقديس بالروح القدس، إلَّا أنه لا يورَّث، فلا يوجد شخص يولد مسيحياً، وإنما يصير مسيحياً بعد نوال سر المعمودية.

٨– كل واحد يحصل على غفران الخطايا من المسيح بواسطة الروح القدس.

٩- جميعنا تحررنا من العقاب الذي تثقَّلنا به في البداية، أي الموت الذي امتد إلى الجميع مثل الإنسان الأول الذي سقط في الموت.

فهل يمكن لأحد -بعد هذا- أن يتجرَّأ ويدَّعي أن القديس كيرلس يقول بوراثة الخطية، وأنه يؤمن بما يسميه المطران-عن غير وعي- بخطية الطبيعة؟!!!

نحن لا ندري ما الذي دعا المطران لأن يختار الهرطقة الغنوسية وتعليم مـــاني؛ لأن التعليم بـــ "خطية الطبيعة" -قولاً واحداً- هو ذات تعليم مـــدارس الغنوســـية، والركن الأول للتعليم المانوي.

كان من الممكن أن نكتفي بملاحظاتنا السابقة باعتبارها تنسف الأساس الذي بنى عليه المطران مقاله، وبالتالي لا تكون هناك ضرورة لمناقشه بقية ما جاء فيه - خصوصاً وقد تناولنا هذا الموضوع من قبل[١]- إلَّا أن قول المطران عن أنه لا ينبغي أن يؤخذ الموضوع بطريقة سطحية دون الدخول في عمقه في ضوء الكتاب المقدس وأقوال الآباء والمجامع الكنسية[٢]، قد يوحي للقارئ بأن المطران يمتلك أدوات البحث الأرثوذكسي، خصوصاً وقد أورد نصاً مزوراً لمجمع قرطاجنة، واقتبس أكثر من نص آبائي، زوَّر أحدهما ولم يوثِّق آخر؛ وبالتالي يوقِع القارئ في براثن التعليم المزيَّف، في حين أن المسألة ليست في رصِّ نصوصٍ واقتباسات، بل هي في التعبير الصحيح عن معنى الإيمان الأرثوذكسي، فقديماً ضرب القديس إيرينيؤس-في كتابه ضد الهرطقات ١: ٣، ٨- مثلاً على قدرة الهراطقة على استخدام فسيفساء صورة الملك في صنع

---

(١) راجع مقالنا: وراثة الخطية أم سيادة الموت؟ مفارقة التعليم اللاهوتي بين أوغسطينوس والآباء اثناسيوس الرسولي وذهبي الفم وكيرلس الكبير – ديسمبر ٢٠١٣ – مقال منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية.

(٢) نلفت نظر القارئ العزيز إلى أن أياً من المجامع المسكونية الثلاث: نيقية– القسطنطينية –أفسس، لم يقرر أي شيء خاص بالخطية سوى عبارة قانون الإيمان: "معمودية واحدة لمغفرة الخطايا"، بل ولم يذكر قانون الإيمان أن المسيح رب المجد مات مصلوباً لكي يدفع ثمن خطايانا -حسب تعليم العصر الوسيط الذي يعتنقه المطران- بل "لأجلنا نحن البشر، ولأجل خلاصنا نزل من السماء ... وقام في اليوم الثالث ... وسيأتي ليدين الأحياء والأموات".

صورة كلب أو ثعلب، فالمشكلة ليست في الأدوات أو المفردات، وإنما في المحافظة على صورة الملك، فليفهم القارئ.

الباب الأول

منهج الأنبا بيشوي في البحث، ونتائجه المدمرة

الفصل الأول

تزوير نصوص الآباء،
وتراث الكنيسة الجامعة

تزوير نصوص الآباء

يريد الأنبا بيشوي أن يثبت وجهة نظره، وأنه على صواب بأي ثمن، حتى لو بلغ إلى ذلك عن طريق تزوير نصوص الآباء، وتراث الكنيسة الجامعة. فقد بلغت به الجسارة أن يفرض فكره على عبارة القديس أثناسيوس التي وردت في الفصل ٢٠ من كتاب تجسد الكلمة، ليجعله يقول إن المسيح جاء لكي يحرر البشر من "معصيتهم الأصلية". في حين أن القديس أثناسيوس يقول:

"فلأجل هذا الغرض جاء المسيح بيننا ... لكي يبررهم ويحررهم من **المعصية الأولى**" (تجسد الكلمة ٢٠: ٢).

فالأصل اليوناني هو ἀρχαίας παραβάσεως أي "المعصية الأولى"، لا المعصية الأصلية. فتعبير "المعصية الأصلية" بالذات لم يرد عند كل الآباء الذين كتبوا باللغة اليونانية، ولا عند أثناسيوس تحديداً. وإذا كان المطران يقول إنه يعرف اللغة اليونانية، فعليه أن يراجع الأصل اليوناني أو ما نُشِر من ترجمات إنجليزية أو عربية للكتاب[١]،وهو ما يقطع بأن الأمر لا يتعلق بخطأٍ في الترجمة، بل في تعمُّد إنطاق الآباء

---

(١) "المعصية الأولى" بحسب الترجمة التي أنجزها د. جوزيف فلتس لكتاب تجسد الكلمة ونشرها مركز دراسات الآباء بالقاهرة، عدة طبعات. أو "المعصية القديمة" حسب ترجمة الأب حنا الفاخوري لذات الكتاب، والتي نشرها في أقدم النصوص المسيحية، سلسلة النصوص اللاهوتية التي يصدرها مجلس كنائس الشرق الأوسط في بيروت – لبنان.

كلاماً لم يقولوه ونصوصاً لم يكتبوها، وهو سلوكٌ متعَمَّد لمطران دمياط يجعلنا هدفاً للسخرية في نظر الكنائس الأخرى.

خطف نصوص الآباء

ويبدو أن دأب المطران إمَّا أن يزوِّر النصوص، أو أن يخطف الكلمات طعماً في برهان يؤيد فكره غير الأرثوذكسي. فقد أقتبس نصاً -اقتطعه من سياقه- من المقالة الأولى في الرد على الأريوسيين للقديس أثناسيوس يقول فيه: "أمَّا الرب، فلكونه غير متغير وثابت تصير الحية عاجزة في مساعيها ضد الجميع لأنه مثلما سقط آدم في العصيان، فإن الخطية اجتازت إلى جميع الناس (رو ٥: ١٢) وهكذا حينما صار الرب إنساناً وحطَّم الحية، فإن قوته العظيمة هذه قد انتقلت إلى جميع الناس .." (راجع ضد الأريوسيين ١: ٥١، ترجمة مركز الآباء)، متصوِّراً أن القديس أثناسيوس عندما يقول إن الخطية اجتازت إلى جميع الناس، فإن هذا يخدم غرضه، في حين أن هذا النص لا يمثل التعليم الرسولي الذي عبَّر عنه أثناسيوس، وأن النص يجب أن يقرأ في ذاته قراءة صحيحة، إلى جوار النصوص الأخرى التي تعرض لذات الموضوع، وإلَّا فبماذا يفسِّر النص الذي تغافل عنه عن عمدٍ أيضاً، والذي يقول فيه القديس أثناسيوس أن هناك أشخاصاً ولدوا بلا خطية؟ وهذه هي كلمات القديس أثناسيوس:

> "هناك أمثلةً لكثيرين قد تقدسوا وتطهروا من كل خطية مثل أرميا الذي تقدَّس من الرحم، ويوحنا الذي وهو لا يزال جنيناً في البطن ارتكض بابتهاج عند سماع صوت والدة الإله مريم" (لو ١: ٤٤)، ومع ذلك فقد "ملك الموت من آدم الى موسى وذلك على الذين لم يخطئوا على شبه تعدي آدم" (رو ٥: ١٤)، وهكذا ظل البشر مائتين وقابلين للفساد" (المقالة ٣: ٣٣ الرد على الأريوسيين).

فهل انتبه نيافة المطران إلى عبارة: "ملك الموت على الذين لم يخطئوا من آدم إلى موسى"؟ على من؟ على الذين لم يخطئوا على شبه تعدي آدم، أي لم يخطئوا خطية تشبه تعدي آدم، والعبارة هي للرسول بولس.

لماذا إذن التهور والزج بمسألة ليست معروفة أصلاً في الأرثوذكسية؟

تزوير نص قانون مجمع قرطاجنة ٤١٨

يقول نيافة المطران في مقاله المشار إليه: "وسوف نبدأ أولاً بإثبات أن هناك فكرة وراثة الخطية الأصلية أو الخطية الجدية".

والواضح من كلام نيافته أن خلطاً قائمٌ لديه، أو أنه يريد أن يقوم هذا الخلط في ذهن القارئ، فيسوِّي بين الخطية الأصلية والخطية الجدية، وكأنهما مصطلحان متساويان، وإنه يمكنه أن يُحِلَّ أحدهما محل الآخر وتكون النتائج واحدة، وهذا في حد ذاته أكبر دليل على الاستهانة بعقلية القارئ، والاجتراء على التعليم دون دراسة كافية، فسوف نشرح بعد قليل لماذا نرفض مصطلح الخطية الأصلية. فقط أردنا أن ننبه ذهن القارئ ابتداءً إلى عدم براءة اعتبار المصطلحين متساويين.

ولكن، إمعاناً في إسباغ الصورة العلمية على المقال، يقتبس المطران نصاً من مجمع قرطاجنة ٤١٨م، استدلالاً منه على أن تعليم الخطية الأصلية هو تعليم مقرر بمقتضى مجمع كنسي، فيقول:

"ورد في قرارات مجمع قرطاجنة عام ٤١٨م في القانون ٢:

> "إن قال أي إنسان أن الأطفال حديثي الولادة لا يحتاجون إلى معمودية، أو أنهم يجب أن يعتمدوا لغفران الخطايا، لكن ليست فيه أية خطية أصلية موروثة من آدم لا بد أن تُغسل بحميم الميلاد الجديد، وفي حالتهم هذه لا تُؤخذ صيغة المعمودية أنها لغفران الخطايا بطريقة حرفيه، إنما بطريقة رمزية، فليكن محروماً؛ لأنه وفقاً لرومية ٥: ١٢ اجتازت خطية آدم إلى الجميع".

وأول ما نعلق عليه هنا هو أن المطران –عن وعي أو غير وعي– أخطأ في الإشارة إلى رقم القانون، فالرقم الصحيح هو القانون ١١٠ وليس القانون رقم ٢.

ثانياً: استبدل المطران عبارة "لكن ليست فيه أية خطية أصلية موروثة من آدم" بعبارة القانون الصحيحة، وهي: "وأن الأطفال لا يرثون من آدم الخطيئة الجدية"، وبالتالي يكون المطران قد أبدل –عن عمد– بعبارة القانون الصحيحة عبارةً من

عندياته آملاً أن ينطلي على القارئ غير المدقق، صحة ما أورده.

ثالثاً: أعاد صياغة نص القانون في استدلاله برومية ٥: ١٢، حيث قال: "لأنه وفقاً لرومية ٥: ١٢ اجتازت خطية آدم إلى الجميع". في حين أن نص القانون هو: "لأن ما يقوله الرسول: "كما بإنسان واحد دخلت الخطية إلى العالم وبالخطية الموت وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس بالذي جميعهم خطئوا فيه" (رو ٥: ١٢)". وإعادة الصياغة بهذا الشكل تعني أن المطران يريد أن يُدخل في روع القارئ أن معلمنا بولس الرسول يعلِّم بوراثة الخطية، وأنه يستقي ذلك من قوله: "اجتازت خطية آدم إلى الجميع"، في حين أن النص يقول: "دخلت الخطية إلى العالم، وبالخطية الموت، وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس"، فالنص يقول إن الموت هو الذي اجتاز إلى جميع الناس إذ أخطأ الجميع، بالذي جميعهم خطئوا فيه (حسب قراءة كل الآباء الشرقيين)،وبالتالي ليست الخطية هي التي اجتازت إلى جميع الناس، بل الموت، والشُّقَة واسعةٌ بين النصين بحجم الهوة بين وراثة الخطية، وسيادة الموت أو الفساد.

وهنا نضع تحت نظر القارئ نص قانون مجمع قرطاجنة رقم ١١٠ بحسب ما أورده الأب حنانيا إلياس كساب في كتابه مجموعة الشرع الكنسي، منشورات النور، لبنان، ص ٧٣١ حتى يدرك القارئ مدى اجتراء الأنبا بيشوي على تزوير، ليس فقط تراث آباء كنيسة الإسكندرية، بل تعدى ذلك إلى تراث الكنيسة الجامعة أيضاً:

يقول القانون:

> "ورضي المجمع أن يحدد ما يأتي: أن كل من ينكر أن يعمد الأطفال المولودين حديثاً، وكل من يقول إن المعمودية هي لغفران الخطايا وأن الأطفال لا يرثون من آدم الخطيئة الجدية التي تحتاج إلى التنقية بحميم الولادة الثانية، ويستنتج من ذلك أن رسم المعمودية لغفران الخطايا للأولاد هو رسم باطل لا حقيقي، فليكن مبسلاً. لأن ما يقوله الرسول: "كما بإنسان واحد دخلت الخطية إلى العالم وبالخطية الموت وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس بالذي جميعهم خطئوا فيه" (رو ٥: ١٢) لا يمكن أن يُفهم بمعنى آخر غير الذي فهمته وعلمته الكنيسة الجامعة في كل مكان. وبموجب هذا

الإيمان تكون عمادة الأطفال الذين لم يرتكبوا بعد، هم أنفسهم، خطيئة لغفران الخطايا أيضاً فإن ما ورثوه من الخطيئة من آبائهم بالولادة يطهر بالولادة الثانية".

وقد يكون دار بخلد الأنبا بيشوي أنه بوضع نصٍ مزوَّرٍ لهذا القانون، يكون قد قال القول الفصل في الموضوع، أو ظنَّ أنه بذلك يكون قد أنهى القضية، في حين أنه أعطانا الفرصة سانحةً لكي نشرح له وللقارئ العزيز نص القانون (الصحيح) في ضوء الليتورجية القبطية لسر المعمودية، وذلك على الوجه الآتي:

هل تعرف صلوات المعمودية وراثة الخطية الأصلية؟

لا تذكر صلوات المعمودية أي شيء عن وراثة الخطية الأصلية؛ لأننا لسنا إزاء خطية أصلية، بل نحن في مواجهة الموت الذي ضرب الإدراك، وأدخل الجهل والوثنية، وضرب الكيان الإنساني، ومزَّق وحدة الإنسان إلى جسد وروح، جسد يعود إلى التراب وروح تذهب إلى الهاوية، حتى جاء الرب ونزل إلى الهاوية أو الجحيم من قِبَل الصليب.

فصلوات طقس المعمودية تؤكد أن سقوط آدم يعني: العبودية للشيطان، ومظهرها ليس فقط عبادة الأوثان، بل في تسلط الأرواح الشريرة على الإنسان، ولذلك يشتمل طقس المعمودية على طقس جحد الشيطان.

والتحليل السابق يعبِّر عن الوضع الخاطئ (أو الوضع غير الطبيعي) الذي أصبح الإنسان موجوداً فيه بسبب سيادة الموت على الطبيعة البشرية، هذا الوضع هو ما تواجهه صلوات المعمودية، وتطلب تصحيحه والعودة إلى رتبة آدم الأولى، أي إلى ما قبل سيادة الموت، وهكذا يمكننا أن نفهم ما تقوله الصلوات عن الخطية والموت:

* امنحهم بنعمتك أن يدركوا الشفاء من الخطية المهلكة.

* لكي تجعلهم أهلاً أن يفوزوا بالنعمة التي تقدموا إليها ويطهروا من الخطية التي في العالم ويعتقوا من عبودية الفساد.

* أنت الذي دعوت عبيدك هؤلاء الداخلين من الظلمة إلى النور ومن الموت

إلى الحياة ومن الضلالة إلى معرفة الحق.

* عرِّهم من عتيقهم.
* جَدِّد حياتهم.
* املأهم من قوة روحك القدوس.
* لكي لا يكونوا بعد أبناء الجسد بل أبناء الحق.
* هيِّئ أنفسهم لكي يقبلوا روحك القدوس.
* وليستحقوا حميم الميلاد الجديد.
* واللباس غير الفاسد.
* وغفران الخطايا.
* إذ تعدَّهم هيكلاً لروحك القدوس.
* ليصيروا حلة نورانية.
* ويلبسوا لباس الخلاص.
* ليصيروا خرافاً ضمن قطيعك.
* وبنيناً لخدرك السمائي.
* وارثين لملكوتك غير الفاسد.
* عرِّهم من الإنسان العتيق.
* جدِّد ميلادهم بالحياة الأبدية.

ولا تكتفي صلوات المعمودية بذلك، بل تستلهم ذات رؤيا تحول الخبز والخمر باستدعاء الروح القدس، فتقول الصلاة:

"نسألك يا ملكنا نحن عبيدك:

- انقلهم ..
- ابدلهم ..
- قدِّسهم ..
- قوِّهم".

ويظهر هذا التحول والانتقال في الصلاة التي تلي هذه الطلبة، حيث تقول:

"قدِّس هذا الماء وهذا الزيت ليكونا لحميم الميلاد الجديد – حياة أبدية – لباساً غير فاسد – نعمة البنوة – تجديد الروح القدس".

واضح إذن أن الخطية الجدية خلقت وضعاً جديداً مضاداً لما سبق، تتمثل عناصره في:

أبناء الجسد – الفساد – الموت – العبودية للشيطان – فقدان الشركة مع الله.

ولذلك تطلب الصلاة:

انقلهم – ابدلهم – قدسهم، وذلك كما نقل ناسوت الرب يسوع نفسه، فصار بالصلب والقيامة غير خاضع للموت – غالب الفساد – ممجداً بكل أمجاد اللاهوت، أي تألَّه.

وهنا نلاحظ أن المعمودية إنما تقدِّم، لا غفران الخطايا وحده، بل غنى المسيح، وهو ما يتم بحميم الميلاد الجديد –نوال البنوة –نوال ميراث الملكوت – سكنى الروح القدس – معرفة الثالوث – خلع الإنسان العتيق الميت، ولبس الإنسان الجديد.

لماذا نرفض تعليم الغرب عن الخطية الأصلية؟

أولاً: لم يرد تعبير "الخطية الأصلية" عند الآباء الشرقيين بالمرة. وحتى في الغرب نفسه لم يكن هذا الاسم الغريب "الخطية الأصلية" معروفاً قبل أغسطينوس، فلم يكن هذا التعبير معروفاً حتى نهاية القرن الرابع، بل فقط جاء في الوثائق اللاتينية. وهو تعبير ينطوي على تعليم غير مسيحي؛ لأنه يؤكد أن الإنسان يولد خاطئاً لا ميتاً. وولادة الإنسان كخاطئ هو ذات تعليم ماني الذي أزعج الكنيسة مع أقطاب الغنوسية، وقال إن الإنسان والكون منقسم إلى قسمين: روحي من صنع إله الخير، ومادي من صنع إله الشر، يترتب على ذلك أن الادعاء بوراثة الخطية على نحو ما ذكره ماني والغنوسيون، يجعل تجديد الإنسان والكون نفسه مستحيلاً، إذ يجب تدمير الخليقة الشريرة التي تأصَّل الشر في كيانها وأصبح ينتقل بالتوالد.

غير أننا لا نولد خطاه؛ لأن الخطية هي فعل *action* وعمل إرادي يدمر

الصورة الإلهية، ويشوش شركتنا في حياة الثالوث القدوس، وهذا ما دعى القديس أثناسيوس لأن يفرد الفصول الستة الأولى من كتابه الرسالة إلى الوثنيين لمناقشة ذلك، وفيما بعد أعاد مناقشة ذات التعليم في الفصول الأربعة الأولى من كتابه تجسد الكلمة، إذ يقول عبارة ذات دلالة مطلقة:

"كل ما هو شر، فهو عدم. وكل ما هو خير، فهو موجود".

(تجسد الكلمة ف ٤: ٥ ترجمة د. جوزيف فلتس).

وعدمية الشر سببها أنه من اختراع الإنسان، وأنه دخل بغواية الشيطان، لذلك فهو لا يبقى، ولذلك يقول المزمور إنه لا خلاص عند ابن آدم "تخرج روحه فيعود إلى ترابه. في ذلك اليوم تهلك كافة أفكاره" (مز ١٤٦: ٤)؛ لأن ما يأتي من مصدر آخر غير الخالق لا يبقى.

ثانياً: عجزت مدرسة أغسطينوس عن أن تقول لنا: لماذا لا نرث خطايا الوالدين، بل فقط خطية آدم، أي ذنب آدم؟ لأن هذا يعني أن الأجيال التي تولد ستكون أشد شراً، وهذا لا يؤكده الواقع. فيوسف العفيف كان أكثر عفةً ورقةً من إخوته، وأخنوخ كان باراً في جيله، وإيليا لم يرث العبادة الوثنية، وهلم جرا.

ثالثاً: الخير هو ما يناله الإنسان ويؤهِّله للشركة في الحياة الإلهية، أي البقاء، ولكن كل أفكار الإنسان، وكل ما يصدر عنه لا يبقى، بل يتبدد، ويترك في الإنسان الموت والجهل بالخير، أي الجهل بالله.

لقد جاءت حركة التنوير في أوربا بقيادة إيمانويل كانط *Kant* وعلى دربه سار كل النقاد، بالقول بأن تعليم الخطية الأصلية هو تعليم يقضي على كل إنسان بأنه فاسد من يوم أن يولد، وبذلك يترع من الإنسان القدرة على الابتكار والإبداع وحرية الاختيار.

وجاء المفكر الفرنسي *Jean Delumea* لينشر أفظع بحث عن الخطية والخوف وتطور ثقافة الذنب في الغرب من القرن ١٣ حتى القرن ١٨ بعنوان: *Sin and Fear, translated by E. Nichelson*. واعتبر بعض علماء الاجتماع أن تعليم وراثة الخطية هو أحد أسباب الإلحاد؛ لأن الله –طبقاً لهذا التعليم– خلق الإنسان فاسداً، وبالرغم

من ذلك يحاسبه على فساده. في حين أن التعليم المسيحي لم يقـــل: في آدم يخطـــئ أو أخطأ الجميع، بل يقول رسول الرب: "في آدم يموت الجميـــع" (١ كـــور ١٥: ٢٢). وأنه في المسيح سوف يعود الكل إلى الحياة، فعاد الرشد والصواب إلى المتمردين علـــى الله.

الفصل الثاني

العبث بنصوص الكتاب المقدس

العبث بكلمات الرسول في نص رومية ٥: ١٢-٢١

في تعليقه على نص (رو ٥: ١٢)، يورد الأنبا بيشوي النص، ثم يقول: "فنحن من الواضح في هذا النص لم نرث فقط حكم الموت، بل ورثنا الخطيـــة، أي طبيعـــة الخطية أو خطية الطبيعة".

والإنسان يعجب مما رصَّه الأنبا بيشوي من تعبيرات افترض هو أنها مترادفات أو أنها تتساوى مع بعضها! كيف يمكن أن تتساوى كلمة "الخطيـــة" مـــع "طبيعـــة الخطية"، مع "خطية الطبيعة"؟! والعجيب في الأنبا بيشوي أنه بعد أن يقول في بدايـــة المقال: "لا يمكن أن يرث الإنسان خطايا أبويه الشخصية"، يعود فيقول: "نحن لم نرث فقط حكم الموت، بل ورثنا الخطية، أي طبيعة الخطية .."!!!

والمصيبة الكبرى أنه يسند ما قاله هو في الفقرة السابقة للقديس بولس؛ لأنـــه يقول بعد ذلك: "لذلك يقول (أي بولس): "دخلت الخطية إلى العالم، و لم يقل دخـــل الموت إلى العالم". فلا ينبغي أن نقول أننا ورثنا فقط نتائج الخطية".

وهو هنا كعادته يريد أن يُنطِق النص ما لم يقله، بل يخطف ما يظن أنه يؤيـــد رأيه الخاص. ولكن عبارة الرسول بولس الصحيحة هي: "بإنسان واحد دخلت الخطية إلى العالم وبالخطية الموت"، و لم يقل الرسول "واجتازت الخطية"، بل: "هكذا اجتـــاز الموت إلى جميع الناس إذ أخطأ الجميع". والنص حسب المخطوطات القديمة[١]"أخطـــأ

---

(١) أنظر مقالنا السابق عن وراثة الخطية أم سيادة الموت، الذي أشرنا إليه قبلاً. وراجع أيضاً نص المخطوطة العربية

الجميع بالموت".

فالرسول بولس يقول: "فإنه إذ الموت بإنسان .. لأنه في آدم يموت الجميع"، ولم يقل: ورث الجميع الخطية؛ لأن بولس لم يكن تلميذاً لماني ولم يكن أحد الغنوصيين. ويقول أيضاً: "ونحن أموات بالخطايا أحيانا مع المسيح" (أفسس ٢: ٥) وتكرر التعبير في (كولوسي ٢: ١٣) "إذ كنتم أمواتاً في الخطايا .. أحياكم معه ..".

ويبدو أن المطران نسي عبارة القداس الباسيلي:

"يا الله العظيم الأبدي الذي جبل الإنسان على غير فساد، **والموت الذي دخل إلى العالم** بحسد إبليس"!!!

كذلك أورد الأنبا بيشوي ما اقتبسه تدليلاً على صحة كلامه عن وراثة الخطية، وقال عنه إنه شرح مثلث الرحمات البابا شنودة الثالث لنص كورنثوس الأولى ١٥: ٢٢ "لأنه كما في آدم يموت الجميع هكذا في المسيح سيُحيا الجميع"، فقال: إن البابا شنودة شرح عبارة "في آدم يموت الجميع"، فقال: "نحن جميعاً كنا في صُلب آدم حينما أخطأ، لذلك فإن حكم الموت قد صدر ضد كل خلية في آدم بما في ذلك الخلايا التي جئنا نحن منها فصرنا تحت حكم الموت نفسه"[1].

وعقَّب المطران قائلاً:

"ونفس المفهوم شرحه بولس الرسول عن سبط لاوى وإبراهيم أب الآباء بقوله "إِنَّ لاَوِي أَيْضاً الآخِذَ الأَعْشَارَ قَدْ عُشِّرَ بِإِبْرَاهِيمَ! لأَنَّهُ كَانَ بَعْدُ فِي صُلْبِ أَبِيهِ حِينَ اسْتَقْبَلَهُ مَلْكِي صَادِقَ" (عب٧: ٩، ١٠).

وبغض النظر عن عدم صحة كلام البابا شنودة بخصوص أن حكم الموت قد

السينائية رقم ١٥١ والتي نشرها هارفي ستال ١٩٨٥، ص ١٢ حيث يرد نص رو ١٢:٥ هكذا: "لأنه كما بإنسان واحد دخلت الخطية إلى العالم، وبالخطية الموت، وكذلك بجميع الناس مرَّ الموت، لأنهم كلهم خطئوا".

(١) يتناقض هذا الاقتباس تماماً مع النص الذي اقتبسه الأنبا بيشوي للقديس كيرلس، والذي ظن من خلاله أن القديس كيرلس يميز بين خطية الطبيعة والخطية الشخصية، والذي يقول فيه: "وهكذا صرنا نحن أيضاً وارثين للعنة في آدم، لأننا بالتأكيد لم نعاقَب كأننا عصينا معه الوصية الإلهية التي استلمها، ولكن ...". لا ندري كيف يتصالح ما اقتبسه الانبا بيشوي ناسباً إياه للقديس كيرلس، مع الذي اقتبسه ناسباً إياه للبابا شنودة؟!!!

صدر ضد كل خلايا آدم بما في ذلك الخلايا التي جئنا منها[١]، نلفت النظر إلى أن ما قال المطران إنه كلام البابا شنودة، بالرغم من أنه يبدو لأول وهلة إنه عن سريان حكم الموت لا سريان قانون وراثة الخطية، إلَّا أن التدقيق في النص يقطع بأن كلاهما يؤمنان ويعلِّمان بأن وجودنا في صُلب آدم، يعني وراثة الخطية، ووراثة الموت جينياً، فالقول بـ "أن حكم الموت قد صدر ضد كل خلايا آدم بما في ذلك الخلايا التي جئنا منها"، لا يمكن أن يعني غير ذلك. ويبدو هذا جلياً من تعليق الأنبا بيشوي على هذا الكلام، فهو لا يكتفي بالموافقة عليه، بل ويفتئت على القديس بولس فيقول: "ونفس المفهوم شرحه بولس الرسول عن سبط لاوى وإبراهيم أب الآباء بقوله "إِنَّ لاَوِي أَيْضاً الآخِذَ الأَعْشَارَ قَدْ عُشِّرَ بِإِبْرَاهِيمَ! لأَنَّهُ كَانَ بَعْدُ فِي صُلْبِ أَبِيهِ حِينَ اسْتَقْبَلَهُ مَلْكِي صَادِقَ" (عب٧: ٩، ١٠)".

إذن نحن هنا لسنا فقط أمام فهم مغلوط لعبارة "صُلب آدم، أو صُلب إبراهيم"، بل وأمام فهم يَصِمَ الله بأنه السبب في الخطية، وفي الموت، باعتبار أن الله هو الذي وضع قوانين الوراثة، وبالتالي تنساب الخلايا محملةً بالخطية والموت إلى سائر الجنس البشري، وهو ما يبدو في أقل القليل منه تجديفٌ على الله؛ إذ كيف يدين الله البشر على خطيةٍ لم يرتكبوها، بل وهو السبب في انتشارها وسيادتها في الجنس البشري؟! وهنا يفصح هذا الفهم عن كمٍّ هائلٍ من التشوش في ذهن المطران، إذ كيف يتفق ذلك مع ما قاله في بداية مقاله من إنه "لا ينكر أن كل إنسان له حريته الخاصة ومسئوليته الخاصة فلا يمكن أن يرث الإنسان خطايا أبويه الشخصية"؟!!إزاء ذلك نجد لزاماً علينا أن نشرح المقصود من تعبير "صُلب آدم، أو صُلب إبراهيم".

ماذا يعني صُلْبُ إبراهيم (عب ٧: ١ – ١٣)

لو أن الرسالة إلى العبرانيين بشَّرتنا بالخطية الأصلية، لقدمنا اعتذاراً واجباً للأنبا بيشوي، ولكن الرسالة تشرح الفرق بين المسيحية واليهودية، وتبرز تفوق المسيحية

---

(١) راجع البند رقم (٤) في تعليقنا على نص الفصل الثامن من كتاب "ضد الذين يتصورون أن لله هيئة بشرية" للقديس كيرلس الكبير في مقدمة هذه الدراسة.

ابتداءً من الإصحاح الأول الذي يقارن فيه الرسول بين الرب يسوع والملائكة؛ ليؤكد أن الرب أعظم، ويؤكد ذلك بما أجراه من مقارنة بين الرب وكهنة العهد القديم.

هكذا يظهر لنا أن نيافة المطران عندما يدلي بدلوه في تاريخ أي عقيدة، تـــراه يفتقر إلى الصحة والأصالة[1]، فهكذا تكتسب عنده كلمة "صُلب" معنى خاصاً بـــه لا علاقة له بالكتاب المقدس في عهده القديم أو الجديد. لكن تتبع معي عزيزي القـــارئ ماذا يريد القديس بولس من مقارنة كهنوت ملكي صادق بالكهنوت القديم، سوى أن ملكي صادق كاهن أعظم بكثير حتى أن لاوي دفع العشور له، فالمقارنة هنا ليســـت عن الخطية بل عن الكهنوت، وهو ما يتضح من خلال النقاط الآتية:

أولاً: ملكي صادق هو كاهن إلى الأبد؛ لأنه مثال لابن الله ربنا يسوع (عب ٧: ١ – ٣).

ثانياً: قدَّم له إبراهيم العُشر؛ لأنه كاهن (عب ٧: ٤).

ثالثاً: الذين هم من بني لاوي –كهنة العهد القديم– يأخذون العُشر حســـب شريعة موسى من أخوتهم رغم أنهم خرجوا من صُلب إبراهيم (من نســـل إبـــراهيم) (عب ٧: ٥).

رابعاً: ملكي صادق ليس من سبط لاوي ومع ذلك أخـــذ العُشـــر وبـــارك إبراهيم، (الذي له المواعيد). تأمَّل ذلك الكاهن الذي ليس من السبط المخصص لخدمة الكهنوت هو الذي يقبل العُشر من إبراهيم.

خامساً: وهنا يصل الرسول إلى خاتمة ما يريد أن يسجله: "بدون مشاجرة أو جدال، الأصغر ينال البركة من الأكبر"، أي أن إبراهيم وكل الذين من نسل إبـــراهيم نالوا بركةً من الذي هو شبه ابن الله، حتى لاوي نفسه كان في صُلب أبيه، وهو هنـــا إبراهيم وليس يعقوب أب الأسباط؛ لأن لاوي لم يكن ابناً ليعقوب فقط، بل لإبراهيم أيضاً (عب ٧: ١٠).

---

(1) المطران –في بحثٍ افتقر إلى الأصالة– في خصوص الترشح لكرسي البطريركية، قال إن قرار مجمع نيقية ٣٢٥ لم يعد ضرورياً، لأنه يريد أن يفرض نفسه، ونفسه وحدها حتى على المجمع المسكوني الذي حرمه من وراثة البطريركية بعد نياحة الأنبا شنودة الثالث.

والخلاصة: أن الكهنوت اللاوي ليس فيه كمال، وإنه يجب أن يتغير، بل لاحظ عبارة الرسول: "لأنه إن تغير الكهنوت فبالضرورة يصير تغيير للناموس (للشريعة)، ولذلك جاء الرب من سبط لم يلازم أحد منه المذبح؛ لأنه جاء على طقس ملكي صادق" (عب ٧: ١١ – ١٧).

ونلاحظ أن كلمة "صُلب" وردت في كلام الله ليعقوب، إذ يقول له: "لا يُدعى اسمك يعقوب ... بل إسرائيل ... وجماعة أمم تكون منك وملوك سيخرجون من صُلبك" (تك ٣٥: ١١ – راجع ٢ أخبار ٦: ٩).

إذن، فالكلمة "صُلبك" هنا لا تعني أكثر من نسلك.

ولعلنا نلاحظ أيضاً كيف وردت الكلمة "صُلب" في شرح قيامة الرب في بشارة بطرس يوم العنصرة، إذ يقول الرسول إن المسيح هو من نسل داود: "وإذا كان نبياً وعلم أن الله حلف له بقَسَمٍ أنه من ثمرة صُلبه يُقيم المسيح حسب الجسد ليجلس على كرسيه" (أع ٢: ٣٠). فلو كانت هذه الكلمة تعني وراثة الخطية لوجب على المطران أن يقول إن المسيح –حاشا– ورث هو أيضاً الخطية؛ لأنه من صُلب داود، أي من نسل داود، ولا يوجد لهذه الكلمة أي معنى آخر. وقد دار القديس أغسطينوس حول نفسه عدة مرات دون أن يقدم إجابة معقولة لشرح أن المسيح أيضاً كان في صُلب آدم وإبراهيم[١]؛ لأن أغسطينوس كان يعتقد بأن "البذرة هي ناقل الخطية"، وهو التعليم الذي ورثه من ماني. كما حاول أغسطينوس أن يجيب عن سؤال دار في ذهنه، وربما في الكنيسة[٢]: هل اعتمد الأطفال لأنهم كانوا في صُلب الآباء، مثل لاوي الذي قدَّم الأعشار عندما كان في صُلب إبراهيم؟ و لم يقدم أغسطينوس ما يستحق التسجيل[٣].

وهنا أقول: لا يجب أن ننسب لأي قديس عصمةً؛ لأن موضوع العصمة لم يُقرر في كنائس الشرق الأرثوذكسي بالمرة، ولكن اتفاق شهادات الآباء مع الكتاب

---

(١) راجع التفسير الحرفي لسفر التكوين ١٠: ١٩ – ٣٤.

(٢) لا يوجد دليل تاريخي على أنها مشكلة عُرفت في الكنيسة.

(٣) راجع، حول فائدة غفران الخطايا ومعمودية الأطفال ٢: ٣٩.

المقدس، ومع ما هو ثابت في التاريخ الكنسي، هو الذي يعطي لشهادات الآباء القوة والأهمية التي تجعلنا نقدمها للقراء. هذا مع الأخذ في الاعتبار أن التعليم العقيدي لا يُؤخذ من شرح واحد من الآباء، بل بإجماع الآباء؛ لأن الكنيسة شركة، ولذلك، فإن ما يُقرر في المجامع المسكونية يكون ملزماً، وما في شرح الآباء إذا اتفق مع ما جاء في قرارات المجامع المسكونية، بالذات التي اجتمعت لتحديد العقيدة، فهو واجب وملزم أيضاً كشرح.

تحليل نص رومية ٥: ١٢–٢١

تأكيداً على صحة كلامه، يورد المطران أيضاً نصاً للقديس أغسطينوس، فيقول:

"يعلق القديس أغسطينوس على قول بولس الرسول: "لأن الحكم من واحد للدينونة وأما الهبة فمن جري خطايا كثيرة للتبرير" (رو ٥: ١٦)، وذلك في دفاعه عن أهمية المعمودية للأطفال فيقول: "من هذا نستخلص أننا من آدم، الذي فيه أخطأنا جميعاً، ليس كل خطايانا الفعلية، إنما الخطية الأصلية فقط، أما من المسيح الذي فيه تبررنا جميعاً فقد نلنا الغفران ليس فقط الخاص بالخطية الأصلية لكن ببقية خطايانا التي أضفناها أيضا".

وبفرض صحة اقتباسه لهذا النص، فنحن لا نستغرب أن يقول أغسطينوس مثل هذا الكلام؛ لأننا قلنا سابقاً[1] أن أغسطينوس قرأ نص رومية ٥: ١٢ على أن الجميع أخطأ في آدم، بينما قرأ كل آباء الكنيسة الجامعة النص على أن الجميع أخطأ في الموت وليس في آدم، فعبارة: "وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس بالذي جميعهم خطئوا فيه"، تعود على الموت لا على آدم، ولذلك استشهاده بنص أغسطينوس لا يحل له المشكلة وإنما يعقّدها.

وإمعاناً في إيضاح ذلك نضع أمام القارئ تحليلاً لنص رو ٥: ١٢ – ٢١.

---

(١) مقالنا المشار إليه سابقاً عن وراثة الخطية أم سيادة الموت.

"١٢- مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَأَنَّمَا بِإِنْسَانٍ وَاحِدٍ دَخَلَتِ الْخَطِيَّةُ إِلَى الْعَالَمِ وَبِالْخَطِيَّةِ الْمَوْتُ وَهَكَذَا اجْتَازَ الْمَوْتُ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ إِذْ أَخْطَأَ الْجَمِيعُ. ١٣- فَإِنَّهُ حَتَّى النَّامُوسِ كَانَتِ الْخَطِيَّةُ فِي الْعَالَمِ. عَلَى أَنَّ الْخَطِيَّةَ لاَ تُحْسَبُ إِنْ لَمْ يَكُنْ نَامُوسٌ. ١٤- لَكِنْ قَدْ مَلَكَ الْمَوْتُ مِنْ آدَمَ إِلَى مُوسَى وَذَلِكَ عَلَى الَّذِينَ لَمْ يُخْطِئُوا عَلَى شِبْهِ تَعَدِّي آدَمَ الَّذِي هُوَ مِثَالُ الآتِي. ١٥- وَلَكِنْ لَيْسَ كَالْخَطِيَّةِ هَكَذَا أَيْضاً الْهِبَةُ. لأَنَّهُ إِنْ كَانَ بِخَطِيَّةِ وَاحِدٍ مَاتَ الْكَثِيرُونَ فَبِالأَوْلَى كَثِيراً نِعْمَةُ اللهِ وَ الْعَطِيَّةُ بِالنِّعْمَةِ الَّتِي بِالإِنْسَانِ الْوَاحِدِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ قَدِ ازْدَادَتْ لِلْكَثِيرِينَ. ١٦- وَلَيْسَ كَمَا بِوَاحِدٍ قَدْ أَخْطَأَ هَكَذَا الْعَطِيَّةُ. لأَنَّ الْحُكْمَ مِنْ وَاحِدٍ لِلدَّيْنُونَةِ وَأَمَّا الْهِبَةُ فَمِنْ جَرَّى خَطَايَا كَثِيرَةٍ لِلتَّبْرِيرِ. ١٧- لأَنَّهُ إِنْ كَانَ بِخَطِيَّةِ الْوَاحِدِ قَدْ مَلَكَ الْمَوْتُ بِالْوَاحِدِ فَبِالأَوْلَى كَثِيراً الَّذِينَ يَنَالُونَ فَيْضَ النِّعْمَةِ وَعَطِيَّةَ الْبِرِّ سَيَمْلِكُونَ فِي الْحَيَاةِ بِالْوَاحِدِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ. ١٨- فَإِذاً كَمَا بِخَطِيَّةٍ وَاحِدَةٍ صَارَ الْحُكْمُ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ لِلدَّيْنُونَةِ هَكَذَا بِبِرٍّ وَاحِدٍ صَارَتِ الْهِبَةُ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ لِتَبْرِيرِ الْحَيَاةِ. ١٩- لأَنَّهُ كَمَا بِمَعْصِيَةِ الإِنْسَانِ الْوَاحِدِ جُعِلَ الْكَثِيرُونَ خُطَاةً هَكَذَا أَيْضاً بِإِطَاعَةِ الْوَاحِدِ سَيُجْعَلُ الْكَثِيرُونَ أَبْرَاراً. ٢٠- وَأَمَّا النَّامُوسُ فَدَخَلَ لِكَيْ تَكْثُرَ الْخَطِيَّةُ. وَلَكِنْ حَيْثُ كَثُرَتِ الْخَطِيَّةُ ازْدَادَتِ النِّعْمَةُ جِدّاً. ٢١- حَتَّى كَمَا مَلَكَتِ الْخَطِيَّةُ فِي الْمَوْتِ هَكَذَا تَمْلِكُ النِّعْمَةُ بِالْبِرِّ لِلْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ رَبِّنَا".

من خلال النص نلفت نظر القارئ إلى ما يأتي:

* يقارن الرسول بين آدم والمسيح لكي يصل إلى الهدف الأسمى، وهو موت المسيح، ويشرح سبب موت آدم وهو الخطية، ولكن الخطية ليست هي سبب موت المسيح، بمعنى أن يسوع لم يخطئ، بل قدَّم ذاته بإرادةٍ حرة من أجل محبته للإنسان. لقد قابل بمجيئه الموت والخطية، وصُلِبَ بإرادته الحرة حسبما قال هو بفمه الإلهي: "لي سلطان أن أضعها وسلطان أن آخذها. هذه الوصية قد قبلتها من أبي" (يو ١٠: ١٨). وتحفظ الليتورجيات الأرثوذكسية هذا التسليم عندما تذكر عشاء الرب. وما ذلك إلَّا لأن الموت ساد على حتى الذين لم يشتركوا في خطية آدم، وإلَّا ما معنى "ملك الموت من آدم إلى موسى وذلك على الذين لم يخطئوا على شبه تعدي آدم"؟ ويختم بولس

هذه العبارة بأن آدم هو مثالٌ للآتي، فما هو هذا المثال؟ الرسول بولس يقصد البداية للإنسانية التي سقطت، والبداية للإنسانية التي تنال التجديد والحياة في المسيح. يؤكد هذا ما يذكره الرسول نفسه:

* الخطية ليست مثل الهبة (رو ٥: ١٥).

* بخطية الواحد مات الكثيرون، وعلى العكس من ذلك، العطية والنعمة التي بالإنسان يسوع المسيح، فقد ازدادت للكثيرين (رو ٥: ١٥).

* والنص القاطع، ولاحظ عزيزي القارئ صيغة النفي: "ليس كما بواحدٍ قد أخطأ، هكذا العطية" (رو ٥: ١٦)، والسبب في ذلك "لأن الحكم[1] من واحد للدينونة، وأما الهبة فمن جري خطايا كثيرة للتبرير".

* والنص الثاني الذي لا يمكن تجاوزه: "بخطية الواحد قد ملك الموت بالواحد، فبالأولى كثيراً الذين ينالون فيض النعمة وعطية البر سيملكون في الحياة بالواحد يسوع المسيح" (رو ٥: ١٧).

* الرسول يتكلم عن ملك الموت لا ملك الخطية. والدينونة جاءت إلى جميع الناس "بخطية واحد"، ومن يمكنه أن يقرأ النص دون الوقوع في تعليم العصر الوسيط يستطيع أن يرى أن حكم الموت صار للكل، حتى على الذين لم يخطئوا على شبه تعدي آدم.

ويصل الرسول، وهو يبشر اليهود بالإنجيل إلى أن "الناموس (أو الشريعة) قد دخلت لكي تكثر الخطية"، أما الإنجيل فـ "حيث كثرت الخطية ازدادت النعمة جداً".

* الخطية تملك في الموت، أما النعمة فتملك بالبر للحياة بيسوع المسيح.

* إذن، لا توجد ازدواجية بين الموت والخطية، فهما ليسا شيئان منفصلان، وبالتالي لا يمكن تصوُّر الخطية بدون الموت، ولذلك يربط الرسول بينهما ربطاً عضوياً: دخلت الخطية – بالخطية الموت.

---

(١) لاحظ عزيزي القارئ أن الرسول لم يذكر كلمة العقوبة، وهي الكلمة المفضَّلة عند الأنبا بيشوي.

* "الخطية تملك في الموت" (عدد ٢١)، لذلك، إذا ضُرب مُلكُ الخطيـــة، (أي الموت)، صارت الخطية غير قادرة على أن تجلب الموت. ولذلك فالقضـــية الأساســـية لخلاصنا هي هدم الموت، وهو ما أنجزه لنا الرب يسوع بموته على عـــود الصـــليب. ولذلك يقول الرسول يوحنا لنا، أي لنا نحن الذين نؤمن بالمسيح: "إن قلنا إنه ليس لنا خطية نُضل أنفسنا وليس الحق فينا (الحق هو المسيح) إن اعترفنا بخطايانا فهـــو أمـــين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل أثم"، ثم يضيف محذِّراً: "إن قلنا إننـــا لم نخطئ نجعله كاذباً وكلمته ليست فينا" (١ يو ١: ١٠)، أمَّا كلامه عن الخطيـــة الـــتي للموت، فهو يقصد الخطايا المعاقَب عليها طبقاً للقانون، مثل الخيانة العظمى في القانون الروماني والثورة على الحكم الروماني، وهي الجرائم التي يعاقَب عليها بالموت، وبالتالي لن تجدِ بشأنها صلاة الكنيسة لهذا الخاطئ.

فإذا كان هذا هو أمر الخطية والموت في نص رو ٥: ١٢ – ٢١، فكيف يمكن أن نقول إن الخطية غير الموت؟ الموت هو المأساة الكبرى؛ لأننا لا نزال نخطـــئ، ومـــا طلب مغفرة الخطايا المتكرر في كل قداسات الكنائس الأرثوذكسية، لا سيما: "يُعطى عنا غفراناً للخطاياً وحياةً أبدية"، إلَّا لأن المصيبة الكبرى هي الموت.

الخطية هي سبب الموت، ولذلك جاء الرب لكي يقضي علـــى المـــوت؛ لأن الموت –بعد آدم– صار هو سبب الخطية، هذا ليس استنتاجاً، بل هو ما يذكره رسول الرب:

* "أما شوكة الموت فهي الخطية" (١ كور ١٥: ٥٦)، ولم يقل الرســـول إن شوكة الخطية هي الموت؛ لأن ما يدفع الإنسان إلى الخطية هو الدفاع عن الحيـــاة لأن الموت أصبح يهدد كل شيء؛ ولذلك يضع الرسول بولس نفسه، الصـــليب والمـــوت والدفن مع المسيح كوسيلة لكسر الشوكة، أي الموت؛ لكي تموت الخطيـــة (رو ٦: ١ – ٨)، وفي عبارة صريحة يقول: "الذي مات تبرأ من الخطيـــة" (رو ٥: ٧)، وأيضـــاً: "احسبوا أنفسكم أمواتاً عن الخطية، ولكن أحياء لله بالمسيح يســـوع ربنـــا" (رو ٥: ١١).

طبيعي أن يثور التساؤل عن علاقة الخطية بالموت، وقد أجبنا على هذا السؤال

على مدى ١٠ محاضرات عن تجسد الكلمة للقديس أثناسيوس الرسولي[١]، وإن كنا هنا نكتفي بالقول بأن الخطية كانت تحولاً في كيان الإنسان، وأسلم الإنسان كيانه للفساد والموت، فعندما أخطأ آدم، أسلم كيانه للموت، وبذلك صار الموت شاملاً للكل. وهنا يجب أن نلاحظ:

١– أن الخطية عمل إرادي خاص بحرية الإرادة والاختيار، فهي -كعمل- لا يمكن أن تنتقل من إنسان لآخر.

٢– إن الموت ليس اختياراً، ولا هو بإرادة الإنسان، بل جاء الموت بالحكم "يوم تأكل موتاً تموت"، وساد الموت على البشرية بسبب الكيان الذي ضُرِبَ بالفساد.

٣– إن وراثة الموت أكثر قبولاً وتاريخية أيضاً؛ لأننا لم نرث خطايا السابقين علينا، وإلَّا كيف نفسر الاختلافات بين الآباء والأبناء والبنات.

فلماذا إذن الإصرار على الخطأ؟ ولماذا هذا العناد في مسألة غير شخصية؟ أليس الإيمان هو ملك لنا جميعاً؟

---

(١) منشورة على موقع الدراسات القبطية واللاهوتية.

الفصل الثالث

هدم الإيمان المسيحي

محاولة لهدم الإيمان المسيحي

على أن الأنبا بيشوي لا يكتفي بما قاله، بل يقرر قاعدة تهدم الإيمان المسيحي من أساسه، إذ يقول: "إن تجاسَر أحد ونقض فكرة وراثة الخطية الأصلية، فإنه دون أن يدري ينفي إمكانية وراثة بر المسيح ...".وهو هنا يحاول أن يخيف القراء متوهماً أنه يقدِّم برهاناً قاطعاً على صحة وجهة نظره، في حين إن ذلك ليس إلَّا هراءً وأباطيل؛ لأن هذه المقارنة التي يعقدها المطران بين آدم والرب يسوع تكشف عن مدى التشويش الذي يكتنف ذهن المطران ومدى تهافت صحة التعليم عنده، فهي مقارنة تظلم الرب نفسه؛ لأننا لا نرث شيئاً من المسيح الرب بقوانين الوراثة، وإنما الميراث هو عطية الآب في الابن بالروح القدس "لا تخف أيها القطيع الصغير لأن أباكم قد سُرَّ أن يعطيكم الملكوت" (لو ١٢: ٣٢)، أي عطية الروح القدس. هذا جحدٌ لنعمة الله الآب وصلاحه!!!

نحن لا نرث أي شيء من المسيح إلَّا بعد دخول مياه المعمودية، ونوال مسحة الميرون، وتناول طعام الخلود، ويسبق هذا الإيمان. والقول بغير ذلك لا يدع ضرورة للإيمان بالمسيح، إذا كانت البشرية سوف يؤول إليها ذلك مباشرةً، وهي نتيجة مرعبة وخطيرة؛ ذلك لأن التحول في كيان الإنسان لا يتم بقوانين الوراثة، وإلَّا لماذا يُعَمَّد الأطفال الذين يولدون من أب مسيحي وأم مسيحية، إلَّا لأنهم لا يرثون نعمة التبني من الوالدين؟

أرجو ألَّا يخرج علينا سيادة المطران ويقول إن النعمة أيضاً تُورَّث.

الموت وليس الخطية هو سبب التجسد:

لم يُقرن الرسول بولس الخطية بالموت من عنداياته، بل يعود ذلك إلى مُعلِّم الحق الإلهي، الرب يسوع المسيح نفسه، إذ يقول بعد أن أطلق سراح المرأة التي أُمسكت في ذات الفعل: "أنا أمضي وستطلبونني وتموتون في خطيتكم" (يوحنا ٨: ٢١)؛ لأن رب الحياة جاء بالحياة، وما غفران الخطايا إلَّا تحرير الإنسان من سلطان الخطية الذي يجلب الموت، وهو السلطان الذي كُسِر وأُبيد على الصليب وبالقيامة.

ألا يندهش القارئ من أن كلمة الخطية وردت مرات معدودة في كتاب تجسد الكلمة[١]،بينما الكلمة التي تراها على كل صفحة من صفحاته هي كلمة "مائت"[٢]. أمَّا كلمة "الموت"، فقد وردت ٧٠ مرة على الأقل ابتداء من ص ٩ – ١٦٧[٣].

تكمن المشكلة في أن بعض الأساقفة الذين يعتلون منبر التعليم في الكنيسة القبطية يعتبرون أن الخطية هي المفتاح الأول والأخير في اللاهوت المسيحي، وأنها هي المحور الذي يدور عليه التعليم المسيحي، بينما هي إحدى مآسي الإنسان التي جلبت عليه الموت. ولذلك، فإن تحوُّل الكيان الإنساني من فساد الموت إلى حياة غير قابلة للموت بالمرة هو ما جاء به المسيح، ولذلك يقول أثناسيوس العظيم:

> "مَن ذا الذي يستطيع أن يعيد للإنسان تلك النعمة ويرده إلى حالته الأولى إلَّا كلمة الله الذي خلق في البدء كل شيء من العدم" (فصل ٧: ٤).

ولذلك وردت كلمة "فساد"، و"عدم فساد" على الأقل ٣٥ مرة في تجسد الكلمة، وهي تعد أحد محاور عمل تجسد الله الكلمة، وهذه بعض أمثلة لما ورد عند أثناسيوس العظيم في تجسد الكلمة:

---

(١) راجع في ذلك ص ٩ من فهرس الموضوعات من ترجمة د. جوزيف لتجسد الكلمة.

(٢) راجع تجسد الكلمة، تعريب د. جوزيف فلتس، ص ٢٣ – ٥٠ – ٥٦ – ٥٨ – ٦١ – ٦٨ – ٧٥ – ٨٩ – ١٣٠ – ١٦٠.

(٣) راجع ص ١٥ من فهرس الموضوعات من ترجمة د. جوزيف لتجسد الكلمة.

- الموت هو البقاء في فساد الموت إلى الأبد (٣: ٥).
- مَلَكَ عليهم الموت. لأن تعدي الوصية أعادهم إلى حالتهم الطبيعية، ... وهي عدم الوجود (٤: ٤-٥).
- بمشورة الشيطان تحولوا إلى أعمال الفساد الطبيعي وصاروا هم أنفسهم السبب فيما حدث لهم من فساد الموت (٥: ١).
- الموت صارت له سيادة قانونية أو شرعية بسبب حكم الله (٦: ٢)[١].

فقدان الروح القدس هو سبب موت آدم والجنس البشري:

هذا العنوان هو ملخصٌ لعدة اقتباسات وردت تحديداً عند القديس كيرلس السكندري تعليقاً منه على كلمات سفر التكوين عندما قال الله إن روحه لن يسكن في الإنسان سكناً أبدياً (تك ٦: ٣)، فهل يعود إلينا الوعي بأن أصحاحات الباركليت التي تُقرأ ليلة آلام الرب في طقسنا القبطي هي عن مجيء وحلول الروح القدس الذي حلَّ بشكل منظور أو مرئي في يوم الخمسين، ولذلك كانت نفخة الروح القدس بعد قيامة الرب هي رد النعمة، أي حلول الروح القدس في آدم الذي فقده بالخطية؟

ذلك لأن مجيء "روح الحياة" بعد إبادة الموت، هو العمل الإلهي الذي يُستعلَن في تدبير الخلاص، ورد النعمة التي فُقِدت، أي سكنى الروح القدس وهي العطية العظمى التي تعطى لأن الرب اجتاز الموت ووُلِدَت القيامة بقيامته.

يقول القديس كيرلس:

> "من الضروري أن يُستعلن الابن كشريك للآب في إعطاء الروح، ومن الضروري أن الذين يؤمنون به يفهمون أن (الابن) هو قوة الآب الذي خلق كل الأشياء، ودعى الإنسان من العدم إلى الوجود. لأن الله الآب -في البدء- بكلمته الذاتي أخذ تراباً من الأرض -كما هو مكتوب- ووهب الإنسان نفساً حسب إرادته (الإلهية) وأناره بنصيب من روحه؛ لأنه "نفخ

---

(١) راجع بالتفصيل محاضراتنا عن كتاب تجسد الكلمة المنشورة على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية.

في أنفه نسمة الحياة" (تك ٢: ٧) ولكن بعد ذلك بالمعصية سقط الإنسان تحت قوة الموت، وفقد كرامته الأولى. ولكن الله الآب أبقى عليه لكي يجدده لحياة جديدة بواسطة الابن، كما حدث في البدء. فكيف جدده الابن؟ بموت جسده الخاص به، فذَبَحَ الموت، وأعاد الجنس البشري مرةً ثانيةً لعدم الفساد؛ لأن المسيح قام لأجلنا. ولكي نعلم أنه هو الذي خلق طبيعتنا في البدء وختمنا بالروح القدس، يمنح مخلصنا الروح بواسطة علامة منظورة، أي نفخة فمه للتلاميذ القديسين لأنهم هم باكورة الطبيعة التي نالت التجديد" (شرح انجيل يوحنا ٢٠: ٢٢ المجلد ٢ ص ٦٧٤ – ٦٧٥)[١].

وفي ذات الصفحة (٦٧٥) يؤكد القديس كيرلس أن الصورة الإلهية هي تحول الإنسان بالروح القدس، فيقول:

"في البدء صُوِّرَ الإنسان وجاء إلى الوجود، وبنفس الأسلوب تم تجديده، وكما كان قد صُوِّرَ كصورة خالقه، هكذا الآن أيضاً بالشركة في الروح القدس[٢] يتحول إلى مثال الخالق؛ لأن الروح يطبع صورة المخلص على قلوب الذين يقبلونه. هذا حقاً لا يحتاج إلى سؤال لأن بولس صراحةً يعظ الذين سقطوا بسبب الضعف، وعادوا إلى حفظ الشريعة، يقول لهم هذه الكلمات: "يا أطفالي الصغار الذين أنا مرةً ثانيةً أتمخض حتى يتكون *Formed* المسيح فيكم (غلا ٤: ١٩). فهو يقول إن المسيح سوف يتكوَّن في الذين يشتركون بالروح القدس ويعيشون حسب شريعة الإنجيل. وهكذا كباكورة الخلقة التي تجددت لعدم فساد ومجد صورة الله، يثبِّت المسيح من جديد روحه في التلاميذ" (المرجع السابق)

وقد كرر القديس كيرلس نفس الشرح في شرحه لإنجيل يوحنا (راجع الإصحاح الأول ١: ١٠ ص ٧٣).

---

(١) راجع الترجمة العربية التي نشرها مركز دراسات الآباء بالقاهرة، المجلد الثاني ص ٥٠٦ وما بعدها.

(٢) لاحظ حرف الجر (في) عن شركتنا في الروح القدس.

وقال أيضاً:

"لأن نسمة الحياة ليست خلق النفس الإنسانية، بل عطية الروح القدس" (شرح يوحنا ١٤: ٢٠ ص ٣١٩).

وسكنى الروح القدس هي التي تجعل الإنسان صورة الله فعلاً[١]. فلقد نال آدم نعمة سكنى الروح القدس (جلافيرا على سفر التكوين ١ مجلد ٦٩: ٢٠ –اشعياء ١: ٢ مجلد ٢٠: ٨١). وسكنى الروح القدس في الأنبياء كانت من أجل النبوة، ولكنه يسكن في المؤمن؛ لأنه سكن أولاً في المسيح عندما تجسد"(شرح يوحنا ٥: ٢ مجلد ١: ٦٩٧)، فالسكنى الأبدية الكاملة تعطى للإنسانية بعد أن مُجِّد يسوع.

يقول القديس كيرلس:

"يوحنا المبارك، وكل الذين وُجِدوا قبله، وُلِدَ حقاً من امرأةٍ، أمَّا الذين قبلوا الإيمان، فهم لا يُولَدون بعدُ من امرأةٍ، بل يُدعَون أبناء الله ... وعندما قام المسيح ومعه سبايا الجحيم، هنا بعد القيامة، أعطى روح التبني للذين آمنوا به، وقبل الكل، لتلاميذه لأنه "نفخ وقال لهم اقبلوا الروح القدس" (يوحنا ٢٠: ٢٢). هنا فقط أصبحوا شركاء في الطبيعة الإلهية لأن روح التبني لم يعطَ قبل قيامته، ويوحنا الإنجيلي الحكيم يقول: "ولكن الروح لم يكن قد أعطي بعد لأن يسوع لم يكن قد مُجِّد" (يوحنا ٧: ٣٩). والمجد يعني القيامة من الأموات والصعود إلى السموات؛ لأن الابن الوحيد كلمة الله عندما عاد إلى السماء، أرسل الباركليت معزِّياً آخر، وهو فينا بواسطته، ولذلك تظهر الحقيقة، وهي أننا إن كنا أقل من أولئك الذين كان لهم بر الشريعة، أي الحياة الصالحة، إلَّا أننا بسبب المسيح نحن أسمى ἐνμτίξοσι مِن كل مَن وُلِدَ مِن امرأة" (عظة ٣٨ على انجيل لوقا مجلد ٧٢: ٦٢٠).

---

(١) وهنا نرجو أن يتوقف هذيان الذين يقولون إننا نأخذ مواهب الروح القدس فقط؛ لأن فقدان سكنى الروح يعني فقدان الصورة الإلهية والحياة الأبدية.

ماذا بعد نسيان الموت، والتركيز على محورية الخطية؟

يقول القداس الغريغوري: "قتلتَ خطيتي بقبرك"، وغيرها من عبارات تؤكد أن المصلي يتكلم باسم آدم. "غصنٌ واحدٌ نهيتني عن أكله .. فأكلت بإرادتي .. أنا اختطفت لي قضية أو حكم الموت". وجاء حكم الموت، فصارت العقوبة، والأصح الحكم، (ولكن لا مانع من كلمة العقوبة إذا نزعنا عنها التشفِّي)؛ لأن الإنسان هو الذي اختطف لنفسه قضية أو حكم الموت، ولكن "حوَّلت لي حكم أو عقوبة الموت خلاصاً"، فقد أُبيد الموت على الصليب، وأُعلنت الحياة غالبة الموت بالقيامة. ولذلك نحن الأحياء بالروح القدس حسب تعليم الآباء نقول: "اسمك القدوس هو الذي نقوله فلتحيا نفوسنا بروحك القدوس ولا يقوى علينا نحن عبيدك موت الخطية ولا على كل شعبك".

هذه هي التقوى الأرثوذكسية، أمَّا عندما تظل الخطية هي المحور، فكأننا نقول بلا وعي:

١– إن المسيح لم يحقق شيئاً؛ لأننا لا نزال نخطئ.

٢–لا تزال الخطية تورَّث، وبذلك كان الأجدر بالله أن يغير قانون الوراثة، لا أن يتجسد الابن لكي يذبح الموت.

٣–وهكذا نأتي إلى العالم ملوَّثين بخطية لم نرتكبها، بينما آدم في الفردوس هو الابن الضال الذي بدَّد ثروته، أي الصورة الإلهية، و لم يقل عنه الرب يسوع إنه أخطأ، بل: "كان ميتاً فعاش وكان ضالاً فوجد".

نحن نحتاج إلى جرعة الحياة، وهي: غفران الخطايا، أي الحل من الرباطات– التجديد – الميلاد الثاني؛ لأننا أموات نحتاج إلى حياة، ولسنا مدنَّسين بخطية حدثت منذ ٥٥٠٠ سنة مضت لا نعرف عنها إلَّا الموت الذي أصابنا بسبب غياب الروح القدس عن الطبيعة الإنسانية. فالفداء هو رد الحياة، وتحرير الإنسان من العبودية للموت؛ لأن الموت هو الذي يحرك الإنسان نحو طلب الخلود، وقد ظن أن الخطية هي طريق الخلود، هي طلب معرفة وحياة حسب المعرفة من شجرة المعرفة لكي يكون خالداً، ولكي يحصِّن كيانه ضد الموت، ولذلك جاء المخلص لكي يضرب الموت فينا

بحمل الصليب لكي يترع ذلك الخوف الذي استعبد كل الخليقة (عب ٢: ١٥).

نحن أحياء بالروح القدس ولا حياة فينا إلَّا بالروح القدس، نحيا كأبناء لله في يسوع المسيح. خلاصة هذا هو ما ذكره الرب يسوع نفسه "ليس لكم حياة" (يو ٦: ٥٣)، فالإنسان ليس "ذاتي الحياة"، وإنما الحياة منحة، وعندما يضرب الموت هذه المنحة، نحتاج إلى تجديد.

شوكة الموت هي الخطية (١كو ١٥: ٥٦):

الشوكة التي تفرز الخطايا كلها هي شوكة الموت، ولذلك يقول رسول المسيح: "وأنتم كنتم أمواتاً بالذنوب والخطايا ... ونحن أموات بالخطايا أحيانا مع المسيح" (أف ٢: ١ – ٤). وهو يكرر نفس التعليم: "إذ كنتم أمواتاً في الخطايا ... أحياكم معه مسامحاً لكم بجميع الخطايا" (كول ٢: ١٣).

حقاً، دخلت الخطية أولاً ومعها الموت. فالخطية تميت الإنسان لأنها تفصله عن كيانه الحقيقي المخلوق على صورة الله ومثاله، وتجعله يختار كياناً آخر من صنعه هو وليس من صنع الله، ومن ثمَّ يكتشف أن كيانه كياناً مزيَّفاً يخلو من الحياة، كياناً مائتاً، وهكذا صارت الخطية هي شوكة الموت، بمعنى أن الموت هو الذي يدفع الإنسان إلى الخطية، لكي لا يموت. الموت يدفع الإنسان إلى الخلود، وحيث أنه لا خلود إلَّا بالشركة في الله، فلا مفر من أن يخطئ، فأصبح البحث الدائم عن الخلود هو شوكة الخطية. ومن ثمَّ تجيء باقي عبارة الرسول عن أن قوة الخطية هي الشريعة. أرجو من القارئ أن يفكر في هذه القضية الكبرى التي نخاف من الاقتراب منها:

* شوكة الموت هي الخطية .. الموت يدفعنا إلى الخطية طلباً للخلود.

* وقوة الخطية هي الشريعة أو الناموس .. أليس هذا تحالف الشريعة مع الموت؟

الخطية – الموت – الشريعة. ثلاثيةٌ جاء المسيح وفكَّ قوتها، دمَّر عرش الخطية (رو ٥: ٢١)، وأعطى الحياة الأبدية. مات لكي نحيا نحن، وحررنا من سلطان الشريعة؛ لأن الغفران هو عطية الله في يسوع المسيح. فما هو الثمن الذي تدفعه في

المعمودية حيث يُصلب الإنسان العتيق؟ وما هو الثمن الذي تدفعه لكي تنال الـــروح القدس؟ .. نحن لسنا تحت حكم الشريعة (رو ٥: ١٥)، بل تحت النعمة. وعندما يأخذ الأنبا بيشوي من فكرة دفع ثمن الخطايا، نقطة انطلاق، ينكر مجانية الغفران، وبـــذلك يدفع السامع والقارئ إلى العيش تحت وطأة الشعور بالذنب، في حين أن المسيح مات لأجل الفجَّار (رو ٥: ٦)، ونحن صولحنا ونحن أعداء لله بموت ابنه، ولـــذلك نخلـــص بحياته (رو ٥: ١٠). وحياة الابن ليست ثمناً، ولا عطية الجسد والدم ثمناً، ولا التـــبني ثمناً، ولنا عودة إلى هذا الموضوع لكي يسمع القراء زئير الآبـــاء وصـــوت الكنيســـة الجامعة.

الباب الثاني

آباء الكنيسة الجامعة قبل أوغسطينوس

تقديم

لا يعرف الآباء الذين كتبوا باليونانية واللاتينية تعبير الخطية الأصلية قبل القديس أوغسطينوس، بل كما ذكرنا من قبل أن كلمات رسول المسيح في (رو ٥: ١٢) ἐφ ᾧ لم تكن تعني أخطأ الجميع في آدم؛ لأنه بسبب الموت أخطأ الجميع في البحث عن الخلود. راجع بحث:

Henri Rondet, Original Sin; The Patristic and Theological Background, 1972.

لدينا أقدم شرح لرسالة رومية، وهو للعلامة أوريجينوس، وما وصلنا هو ترجمة روفينوس ويعود تفسير رومية للعلامة أوريجينوس إلى القرن الثالث، وفكرة وراثة الخطية غائبة تماماً في هذا الشرح[١] وسوف نعود للعلامة أوريجينوس فيما بعد.

وفي الغرب شاع تفسير لرسائل القديس بولس تحت اسم منسوب لامبروسيوس باسم *Ambrosiater* ولكن تؤكد كل الدراسات المعاصرة أنه لشخصٍ مجهول عاش في القرن الرابع. نشرت الترجمة الانجليزية *Ancient Christian Texts* المجلد الأول.

يقول هذا التفسير في شرح (رو ٥: ١٢)، وهو شرحٌ لا يتفق مع شرح أوغسطينوس بالمرة، وقد تُرجم النص عن اللاتينية، ويمكن مراجعة الترجمة الانجليزية

(١) راجع شرح رومية الكتاب ٥: ١ ص ٣٠٤-٣٠٥ من الترجمة الإنجليزية.

ص ٤٠-٤١:

"يقول بولس الكل أخطأ في آدم، وهو يعني بالتأكيد المرأة أيضاً (حواء)؛ لأنه (بولس) لم يكن يعني شخصاً معيناً، وإنما الجنس البشري كله. من الواضع أن الكل (الجنس البشري) أخطأ في آدم كما لو كان الكل كتلة واحدة. الكل فسد بالخطية، أي أولئك الذي كان لهم آباء، والآباء كانوا تحت الخطية. لذلك السبب الكل أخطأ؛ لأننا كلنا انحدرنا منه. هو (الجنس البشري أو آدم) فَقَدَ بركة الله بسبب المعصية، وصار الكل غير مستحق أن يأكل من شجرة الحياة، ولذلك السبب مات (آدم). الموتُ هو انفصال النفس عن الجسد، ويوجد موتٌ آخر يُسمى الموت الثاني، وهو الذي يحدث في الجحيم. نحن لا نعاني هذا الموت بسبب خطية آدم، ولكن خطايانا (الشخصية) هي التي تجعل من الممكن أن (نذهب إلى الجحيم) ... الكل كان تحت عبودية الحكم الذي صدر على آدم، ولكن ختم هذا الحكم كُسِرَ بموت المسيح. وصار الحكم من آدم على الجسد أن ينحل في التراب، ولكن النفس مربوطة بسلاسل الجحيم حتى تُفك منها".

الفصل الأول

الآباء الرسوليون

لم تُشِر الوثيقة المعروفة باسم تعليم الاثنى عشر *Didache*، ولا حتى رسالة اكليمنضس الروماني إلى كنيسة كورنثوس إلى سقوط آدم بالمرة.

عندما شرحت رسالة برنابا خلق آدم، ذكرت قصة الخلق من تراب الأرض، وهبة الصورة الإلهية دون أي إشارة إلى سقوط آدم أو وراثة الخطية.

هناك إذن صمتٌ تام في ثلاث وثائق، والصمت لا يؤكد ولا ينفي؛ لأن القاعدة التي استقرت في الأبحاث الأكاديمية هي: "لا برهان مبني على الصمت" *Don't argue from silence* لأن الصمت لا يجب أن يكون برهاناً، فهو أصلاً لا يقدم أي معلوماتية.

وبالرغم من تشديد راعي هرماس على العلاقة العضوية بين الخطية والموت وعلى إغراء الشيطان، إلَّا أنه لم يذكر آدم وحواء (الرؤيا ١: ١، ٨ — *Mand* ١٢: ١، ٢ – Sim ٦: ٥–٧).

الشهيد اغناطيوس الأنطاكي يعلِّمنا "بنهاية الموت بسبب موت الرب على الصليب" (سميرنا ١: ٢ – ترالس ٩: ٢). ويؤكد عطية الحياة الأبدية لأنها هبة الخلاص في يسوع المسيح (رسالة أغناطيوس إلى رو ٦: ٢)، وهو أعظم شاهد من القرون الأولى على هبة الحياة الأبدية في الإفخارستيا؛ لأن جسد المسيح هو دواء أو ترياق لعدم الموت (الرسالة إلى فيلادلفيا ٤: ١ — سميرنا ٧: ١ —أفسس ٢٠: ١).

الفصل الثاني

الآباء المدافعون

يوستينوس الشهيد حوالي ١٥٠م

إذا درسنا دفاع الشهيد يوستينوس[١] فإن الدفاع الأول يذكر ضرورة المعمودية دون أن يذكر خطية آدم، ناهيك عن الخطية الأصلية (فقرة ٦١)، ويذكر ميل الإنسان إلى الشر دون أن يذكر آدم وحواء، بل الشيطان وحده هو سبب انتشار الموت في الخليقة؛ لأن الخطية عامة شملت الكل دون أن يذكر الوراثة (الدفاع الأول ٥٤ و٥٦).

أمَّا في الحوار مع تريفو اليهودي، ففيه يدافع عن تعليم المسيحية بالخلاص، وكيف أنقذنا الرب يسوع من الموت بالصليب، وأنه مات فديةً عن خطايا شعبه (راجع ١٣: ١-٧ — ٣١: ٢ — ٦٣: ٢). راجع على سبيل المثال:

"الإيمان بالدم وبموت المسيح الذي جاز الموت لهذا الغرض" (الحوار ١٣: ١-٧).

وفي تأكيد ميلاد الرب من عذراء يقول يوستينوس في الحوار مع تريفو:

"إننا نؤمن أنه مولود من عذراء لكي يزيل العصيان الذي تسببت فيه الحية، وبالطريقة نفسها التي نشأ بها العصيان. لأن حواء وهي عذراء عفيفة حبلت بكلمة الحية وولدت العصيان والموت، ولكن العذراء مريم الممتلئة إيماناً وفرحاً عندما أعلن لها الملاك البشارة (لو ١: ٣٥) ولدت بالفعل الذي

---

(١) يجب أن نشكر دار بناريون بالقاهرة على الطبعة الفاخرة.

أشار إليه الكتاب المقدس مراراً، والذي به يسحق الله الحية، ويسحق هؤلاء الملائكة والناس الذين صاروا مثل الحية، ويحرر من الموت هؤلاء الذين يتوبون عن خطاياهم ويؤمنون به" (راجع ترجمة دار بناريون بالقاهرة ص ٢٦٧).

"الإنسان منذ وقت آدم ساقط تحت سلطان الموت وغواية الحية" (الحوار ٨٨: ص ٢٥٤).

"ولم يكن موت المسيح على الصليب لعنةً من الله، بل من البشر" (الحوار ٩٤: ٢ – راجع ص ٢٦٢ ثم فصول ٩٦-٩٧-٩٨-٩٩-١٠٠)، وكلها شرح لآلام الرب من العهد القديم.

ويجب أن نقول صراحةً أن هذا الشرح هو ضد ما قيل من العصر الوسيط، وما يدافع عنه الأنبا بيشوي من تُرَّهات.

وبالطبع لا نجد في الحوار إلى تريفو مكاناً للخلاص في المسيح بسبب سقطة آدم؛ لأن المدافع أمام يهودي لا يذكر هذا، بل يؤكد أن تمام النبوات هي انتصار صلاح الله ومحبته على غواية الحية. وبالتالي أيضاً لا يوجد مكان للخطية الأصلية. ومن الفقرة (٨٨: ٤) في الحوار يظهر جلياً أنه لا يعرف وراثة الخطية، بل يقول:

"لقد تألم المسيح بالموت مصلوباً لأجل الجنس البشري لأن آدم سقط تحت سلطان الموت، وأخطأ بخطية الحية، فصار كل إنسان يخطئ".

ثيئوفيلوس الأنطاكي:

في رسالة إلى اتوليكوم *Autolycum* يشرح قصة الخلق سطراً سطراً حتى يصل إلى خلق الإنسان مؤكداً أن صيغة الجمع "لنخلق الإنسان" هي إشارة للثالوث.

"الإنسان لم يُخلق مائتاً أو خالداً، بل دُعي لكي يختار الخلود أو الموت" (٢: ٢٤).

هنا نجد بداية التعليم الأرثوذكسي الأصيل، وهو أن الخلود هو صفة من صفات الله، ولذلك كان الإنسان مدعواً لأن يختار الخلود (٢: ٢٧ – ٢: ٢٥).

ماذا يقول ثيئوفيلوس عن خطية آدم؟

"عندما يولد طفل فهو لا يأكل الخبز، بل يرضع اللبن حتى ينمو ويصبح قادراً على أكل الطعام، هكذا كان آدم. و لم يكن لدى الله حسدٌ، ولذلك منع آدم من الأكل من شجرة المعرفة، كما يتخيل البعض، بل كان يريد منه أن يتذوق الطاعة للوصايا الإلهية. وكانت رغبته في أن ينمو (آدم) ويبلغ من حالة البراءة إلى النقاء اللائق بالأطفال. و لم يكن الأمر بالنهي هو مجرد قانون إلهي فقط، بل هو قانون خاص بالآباء أيضاً عندما يريدون أن يحفظوا أطفالهم في البراءة والنقاء. فإذا خضع الأطفال للوالدين، فهم يخضعون بالأولى لله أب كل الكائنات. وبالإضافة إلى ذلك، فليس من الطبيعي للأطفال الصغار أن يفكروا في أمور أبعد كثيراً عن أعمارهم؛ لأن تقدم العمر يعني تقدم في المعرفة" (٢: ٢٥).

آدم كان في طفولة روحية:

سوف ندرس هذه المقولة عند القديس إيريناوس، حيث يقول إن آدم كـــان عديم الخبرة، ولذلك سقط، لكن ماذا يقول ثيؤفيلوس الأنطاكي عن عصيان آدم؟

"ذاق الإنسانُ بمعصيته التعب والألم والحزن، وأخيراً سقط تحت سلطان أو قوة الموت. من ناحية أخرى كانت الرحمة الإلهية هي أن لا يظل الإنسان في حالة الخطية، بل بأن يُحكم عليه بالطرد من الفردوس. كان هذا تأديباً لكي يتحرر الإنسان من ذنبه في مدة معينة، وبعد أن يتعلم من التأديب، كان يمكنه أن يعود إلى بيته (الفردوس)، لهذا السبب وَرَدَ خلقُ الإنسان مرتين في سفر التكوين بطريقة سرية، وذكر السفر أنه كان في الفردوس مرتين. المرة الأولى عندما خُلِقَ ووُضِعَ في الفردوس، والمرة الثانية عندما سيعود بعد القيامة في يوم الدينونة. وكما أن الزهرية *Vase* إذا ظهر لصانعها خطأ في صناعتها، يعيد صياغتها من جديد لكي تصبح جديدة وكاملة، هذا ما حدث للإنسان الذي سقط تحت سطوة الموت، فقد كُسِرَ

لكي يوجد في يوم القيامة بلا عيب وبلا دنس، بل باراً وخالداً" (٢: ٢٦).

وهنا نرى كيف سيتم الخلق بعد القيامة في يوم الدينونة، عندما يكمُل خلق الإنسان. والمدهش حقاً أنه في كل ما ذكره لم يأتِ ذِكر لخطية موروثة. كان المجال مفتوحاً أمامه، ولكن لأن هذا لم يكن أساساً بنَتْ عليه الكنيسة أي تعليم كما حدث في العصر الوسيط؛ غاب موضوع سقوط آدم ووراثة الخطية كسبب للخلاص.

القديس إيريناوس

كان اكتشاف كتاب برهان التعليم الرسولي بمثابة تأكيد لما ورد في كتاب القديس إيريناوس "ضد كل أو جميع الهرطقات". ورغم أن كتاب "ضد جميع الهرطقات" كُتِبَ للرد على الهرطقة الغنوصية، فإن شهادة القديس ايريناوس تُعد أول تعليم لاهوتي متكامل. يقول في الكتاب الرابع:

"منذ البدء كان الله قادراً على أن يعطي الكمال للإنسان، ولكن الإنسان، ذلك المخلوق الجديد لم يكن قادراً على أن يقبل الكمال أو يحفظ الكمال في قلبه. لهذا السبب، الكامل كلمة الله وُلِدَ كطفلٍ صغير، ليس لأجل ذاته، وإنما لأن الإنسان نفسه كان في مرتبة الطفولة، ولكي ما يقبله البشر كإنسان، ولم يكن ذلك تقصيراً أو عجزاً في الله، بل كان التقصير والعجز في الإنسان ذلك المخلوق الجديد.."

وبعد ذلك يؤكد التجسد بشكل ديناميكي:

"قرر الآب، بل أوصى أن يحمل الابن الشكل الإنساني، وأن يغذِّي الروح ذلك الشكل ويعطيه الحياة لكي ينمو قليلاً قليلاً، ويصعد الإنسان فيه إلى الكمال، ويقترب من غير المخلوق، من الله. أمَّا الإنسان نفسه، فكان من الضروري أن يُخلق أولاً، وبعد أن يُخلق، ينمو وينمو نحو البلوغ، وبعد أن يبلغ، يتكاثر، وبعد أن يتكاثر، يتقوى، وبعدها يتمجَّد، وبعد أن يتمجَّد، يرى ربه؛ لأن الله سوف يُرى في يوم معين. ورؤية الله سوف تعطي معها عدم الفساد، وعدم الفساد يجعلنا قريبين من الله" (٤: ٣٨ — ١ — ٣ النص

المحقق، طبعة Harvey ص ٢٩٢-٢٩٦).

طفولة آدم:

لاحظ أن كلمات إيريناوس لم نعد نسمعها في العصر الحديث. هو يقول:

"حقاً، الله هو مجد الإنسانية، ولكن الإنسانية هي مكان عمل الله حيث قوته وحكمته. وكما أن الطبيب تظهر مهارته عندما يعالج المريض، هكذا الله يُستعلن في أشخاص البشر، ولذلك السبب يقول بولس إن الله "أغلق على الكل في العصيان لكي يرحم الجميع" (رو ١١: ٣٢)، ولم يقل (بولس) هذه الكلمات عن عصور روحية (حسب تعليم الغنوصية)، بل عن الإنسانية التي عصت الله وطُرِدَتْ من الخلود، ولكن نالت الرحمة؛ لأن البشر قبلوا التبني من الله بواسطة الابن ذاته" (ضد جميع الهرطقات ٢: ٢).

في ذات الكتاب (الفصل ٢٠: ١-٢) نكتشف الإيمان العميق والواضح بالرحمة الإلهية، فيقول:

"الله طويل الأناة، يحتمل إساءة الجنس البشري، وكان قد سبق فرأى الانتصار الذي سوف يُمنح بواسطة الكلمة. وحقاً، إن قوته تظهر كاملة في الضعف. وقد أعلن الكلمة رأفة الله وقوة رأفته العظمى، ولكي أُوضِّح هذا، فقد أعدَّ الحوت لكي يبتلع يونان لأن الله طويل الأناة، وبلعه الحوت لا لكي يهلك لأن الحوت قذفه، بل لكي يتعلم كيف يخضع لله، ولكي يمجِّد الله الذي منحه الخلاص الذي لم يكن يرجوه، بل لقد رتَّب توبة حقيقية لأهل نينوى لكي يعودوا إلى الرب ولكي يتحرروا من الموت..".

ثم يمضي ليقول بعد ذلك مباشرة:

"وعلى نفس المنوال في البدء سمح الله للإنسان بأن يُبتلع بحوتٍ عظيم، ذلك صاحب كل تعدي؛ لكي لا تهلك الإنسانية عندما تُبتلع أبداً، بل لأن الله بواسطة معجزة يونان دبَّر طريقة الخلاص".

ويصل إلى غاية ما يريد أن يشرحه وهو ما ورد في الفقرة ٢.

"هكذا كانت طول أناة الله، أن يختبر الإنسان كل شيء، وأن يعرف الموت لكي يصل إلى القيامة من الأموات، ولكي يتعلم من اختبار الموت كيف يتحرر من الموت، لكي تبقى الإنسانية دائماً شاكرة الله؛ لأنه من الله قَبِلَت الإنسانية عطية عدم الفساد، وذلك لكي تحب الله وحده أكثر من أي شيء آخر، لأن مَن يحب أكثر يُغفر له أكثر (لو ٧: ٤٧)، بالإضافة إلى ذلك، فإن البشر عندما يعرفون أنهم ضعفاء ومائتين، سوف يفهمون الله ويعرفون أنه هو عديم الموت، وقويٌّ لدرجة أنه سوف يمنح لهم الحياة الأبدية".

لكن مَن هو آدم، ومَن هي حواء؟

في الفقرة ١٢ من برهان التعليم الرسولي يقول ايريناوس:

"بعد أن خلق الإنسان وجعله رب الأرض وكل ما عليها ... ورغم أنه ربٌّ، أي الإنسان، إلَّا أنه كان صغيراً وكان طفلاً *Child* في حاجة إلى النمو، وهو ما حدث بعد ذلك عندما وصل إلى الكمال ... هكذا لم يسقط آدم لأنه كان كاملاً، بل لأنه فشل في أن يصل إلى الكمال ...).

كان آدم طفلاً. وهذا ما كرَّره أيضاً في (فصل ١٤).

وإذا عدنا إلى الكتاب الثالث من كتاب ضد جميع الهرطقات، فصل (٢١: ١٠)، نجده يقول:

"لقد جمع (الابن) *recapitulated* في ذاته حتى أولئك الذين خُلقوا في الأزمنة القديمة، ولكي أشرح ذلك، كما بمعصية إنسان جاءت الخطية والموت بالخطية وملكت الخطية، هكذا بطاعة الواحد جاء البر وأثمر ثمرة الحياة للذين ماتوا في الأزمنة السابقة. وكما خُلق آدم من تراب الأرض كما لو كان من عذراء لم يفلِّحها أحد لأن الله لم يكن قد أمر بنزول المطر، ولم يكن الإنسان قد بدأ يفلِّح الأرض، هكذا الكلمة الذي به خُلق كل شيء، صوِّر بيدي الله، وبهذا الأسلوب جمع الكلمة في كيانه آدم نفسه؛ لأنه أخذ من مريم العذراء ميلاده لكي يجمع آدم بميلاده (من

مريم)".

شرح ايريناوس الخلق وتاريخ العالم وطرد آدم من الفردوس، ولكنه بينما صَمَتَ تماماً عن وراثة الخطية، سلَّط النور على الموت. حيث يقول:

"جاء الموت بالخطية تماماً كما قال بولس في (رو ٥: ١٢). كان السقوط هو تعدي حدود الطبيعة الانسانية" (برهان التعلم الرسولي فقرة ١٥)."ولكن الموت هو المأساة الحقيقية؛ لأن آدم أخذ روح الآب لكي يحيا "مثالاً لله" (فقرة ٨ من برهان التعليم الرسولي).

آدم خُلق لكي يكون مثال الآتي، أي آدم الحقيقي يسوع:

بعد أن يؤكد سلسلة أنساب الرب يقول إيريناوس:

"إن الرب تجسد لكي يجمع البداية والنهاية معاً في شخصه؛ لأنه يجمع *recapitulates* في شخصه كل الشعوب التي تفرَّقت من آدم إلى تجسده، ولذلك يقول بولس إن آدم هو مثال الآتي؛ لأن الكلمة هو الفنان الذي يصمم كل الأشياء قبل أن توجد حاسباً أنها ستكون في تدبيره الذي سيُعلَن في المستقبل؛ لأن الخلق رُتِّبَ حسب تدبير ابن الله؛ لأن الله رتَّب أن يخلق آدم الأول نفسانياً لكي ما يخلص بواسطة آدم الثاني الإنسان الروحاني؛ لأن المخلص كائن قبل كل الأشياء، فكان من الضروري أن الكل الذي يخلص يأتي إلى الوجود لكي لا يكون المخلص بلا غاية" (الكتاب ٣ فصل ٢٢ فقرة ٣٠).

العلامة ترتليان

لا يعرف بعض القراء المعاصرين لنا أنهم يسألون ذات الأسئلة التي طرحها مرقيان الغنوصي في نهاية القرن الثاني وأول الثالث، وهي كيف خلق الله الصالح العالم المادي الشرير؟ وكيف سمح الله الصالح بالموت لكل الكائنات الحية، وبشكل خاص الإنسان؟ وطبعاً كان رد مرقيان الغنوصي هو أن خالق العالم المادي المنظور هو إله

الشر، وهو بالضرورة شريرٌ، وأن موت آدم هو عقاب إله الشر الذي حَبَسَ وسَجَنَ الأرواح في أجسادٍ ترابية قابلة للموت، بينما الروح غير قابلة للموت.

ويبدو أن رد القديس ايريناوس لم يكن كافياً، ولذلك تصدى المحامي ترتليان بالرد في خمسة كتب بعنوان ضد مرقيان *Marcion* وكان ردُّ العلامة المحامي الشهير موجزاً في أن آدم خُلق حراً، وأنه أساء استخدام حرية الاختيار (ضد مرقيان ١: ٢٤، ٧٠٥) وأن آدم رغم سقوطه لم يجدِّف على الله مثل مرقيان (٢: ٢، ٧) وأن آدم سقط لأنه "أُغويَ بواسطة الحية"، وأن آدم هو المسئول عن دخول "الموت إلى العالم" بواسطة معصيته (٢: ٧، ١٠) ولكن رحمة الخالق ظهرت في الحديث مع آدم، وردَّه بالتوبة بعكس قايين الذي غرق أكثر من آدم في الشر (ضد مارقيان ٢: ٢٥ و ١-٢).

وفي المقالة الخاصة بالنفس الإنسانية، وهي أول ما كُتِب عن النفس في التاريخ المسيحي "النفس لها كيان *Corporalis* يحيا بعد موت الجسد" (مقالة النفس ٦: ١-٥). "وهي لها صورة طبق الأصل من الجسد والنفس هي الإنسان الداخلي" (٩: ٢، ٨).

إن مقالة النفس هي أطول عراك مع مدارس الفلسفة اليونانية، وهي أول محاولة للرد المطوَّل على أراء كل فلاسفة اليونان، وهي تستحق دراسة منفصلة. لكن يهمنا هنا الفكرة الشائعة بعد ذلك في المؤلفات المسيحية اللاتينية، وهي أن -كما يقول ترتليان في الفصل ٤٣ وهو فصل هام جداً:

> "إذا أردت أن تقبل تعليمك من الله، فإن آدم هو ينبوع الجنس البشري، وأن كل نفس هي آدم حتى تقبل المسيح وتتَّحد به. الله وحده هو الذي بلا خطية والإنسان الوحيد الذي بلا خطية هو المسيح؛ لأن المسيح هو الله أيضاً ... وكما أنه لا توجد نفس بلا خطية، هكذا لا توجد نفس بلا أعمال صالحة. وعندما تقبل النفسُ الإيمانَ وتتجدد مرةً ثانيةً بالميلاد من الماء والروح (المعمودية، وله أقدم مقالة عن المعمودية) وتنال قوة من فوق، فإن حجاب الفساد يُترع ... لأنها تنال الميلاد الثاني بواسطة الروح القدس ... والجسد يتبع النفس الذي تتزوج الروح القدس كجزء من العُرس،

وتتبع النفس الروح القدس ليس كخادم للجسد، بل كخادم للروح، ما أعظم هذا الزواج .." (٤٣: ١).

ترتليان والخطية الأصلية:

لم يستخدم ترتليان هذا المصطلح "الخطية الأصلية". ولو كان يعرف هذا المصطلح لكان عليه أن يعبِّر عن هذا بشكل ملحوظ في مقالته عن جسد المسيح. يقول في (الفقرة ١٦):

"أخذ المسيح جسداً من أصل ترابي (أرضي)، ونحن نتمسك بأن الذي أُبيد، ليس الجسد الخاطئ *Carnem Peccati* ولكن الخطية في الجسد *Peccatumcarnis* ليس الجسد في طبعه المادي، بل الجسد كما تحوَّل، ليس جوهر الجسد هو شرير،(وهو ما يكتب ترتليان ضده)، بل ما يؤول إليه استعمال الجسد حسب شهادة الرسول الذي قال عن المسيح "شبه جسد الخطية"، ليس لأنه أخذ "شبه جسد" (رأي الغنوصية)، كما لو كان شبحاً أو صورةً للجسد بلا وجود حقيقي، بل شبه الجسد الذي أخطأ؛ لأن جسد المسيح لم يرتكب خطية، بل يشبه جسد الذي أخطأ (آدم)، وصار يشبه نفس جسد آدم في طبيعته، ولكن ليس في الفساد الذي قَبِلَه من آدم. وهكذا نحن نؤكد أن المسيح له ذات الجسد الإنساني الذي له طبيعة خاطئة. في هذا الجسد نقول إن الخطية أُبيدت لأن المسيح كان بلا خطية، وهو ما عجز عن أن يعمله الإنسان".

وعندما يواجه الغنوصية ويتحدث عن ميلاد الرب بدون زرع بشري يقول:

"كلمة تحذير نوجِّهها لكل من يرفض أن جسدنا كان في المسيح مدعياً بأن جسد المسيح لم يتكون بزرعٍ بشري، ولذلك هو ليس جسداً بشرياً؛ لأنه لم يكن له أب (حسب الجسد)، وعلى هؤلاء أن يتذكروا أن آدم نفسه أخذ جسدنا بدون زرع أب بشري، وكما أن التراب تحول إلى هذا الجسد الذي هو جسدنا بدون زرع أب، هكذا من الممكن أن نقول إن ابن الله

أخذ ذات جوهر الجسد الآدمي بدون تدخل أب" (فقرة ١٦).

كانت الغنوصية تهدد كل ما تؤمن به الكنيسة، ولكن الخطيـــة في كتابـــات ترتليان، ليست هي الخطية الأصلية التي تورَّث، بل الطبيعة الـــتي دبَّ فيهـــا الفســـاد *Viticm - Originis* النقص الأصلي، أي الفساد وهو الموت" (مقالة النفس ٤١: ٣).

وفي مقالة جسد المسيح يدافع بحرارة عن ميلاد الرب من عذراء – و لم يقبـــل ما ساد بعد ذلك لكي يتفادى الخطية الأصلية، بل بعد أن يذكر نبوة اشعياء (٧: ١٤) عن ميلاد عمانوئيل يقول:

"الآن هذه هي البشارة الجديدة، إنسانٌ وُلِدَمن الله، وفي هذا الإنسان الله وُلِدَ، وأخذ جسداً من الجنس البشري القديم بدون معونة من أحد (أب بشري)، وعلى الرغم من ذلك، فهو من الزرع القديم لكي يجدَّد بزرعٍ جديد بأسلوبٍ روحي ويطهُر بإزالة كل الدنس القديم" (فقرة ١٧: ٣).

وفي فقرة في مقالة القيامة، وهو يشرح عبارة الرسول بولس: "كمـــا في آدم يموت الجميع هكذا في المسيح سيُحيا الجميع"، وكما "لبسنا صورة التـــرابي ســـنلبس صورة السمائي" يقول:

"نحن نلبس صورة الترابي وعلينا أن نلبس صورة السمائي، وحقاً نحن لبسنا الترابي لأننا أخطأنا ذات خطيته واشتركنا في موته" (٤٩: ٣).

وحسب الأصل اللاتيني نحن *Per Collegium Choici* لنا ذات التضـــامن في خطية آدم وبالتالي في موته.

وعندما كتب ترتليان مقالته عن المعمودية (٢٠ فقـــرة)، وأبـــرز معموديـــة الأطفال، لم يذكر ضرورة معمودية الأطفال لكي تُمحى خطية آدم الأصلية. بـــالطبع اختلف هذا كثيراً عن كتاب القديس أوغسطينوس عن فوائـــد ومغفـــرة الخطايـــا في المعمودية ومعمودية الأطفال، إذ صار رأي أوغسطينوس سائداً.

القديس أكليمنضس السكندري:

يتبنى أكليمنضس السكندري ذات تعليم إيريناوس، إذ يقول في كتاب رسالة

إلى الوثنيين:

"عندما كان الإنسان الأول يلعب دون انضباط، فقد كان لا يزال طفل الله الصغير، ولكنه استسلم إلى نزوة وأمسك به فخُّ نزوته (شهوته)، وكبر الطفل الصغير وصار رجلاً عندما عصى، وانزوى عن أبيه، فصار يخجل من الله. هكذا كانت قوة الشهوة؛ لأن الإنسان الذي كانت البراءة هي حريته، وجد نفسه مقيداً بالخطية، وأراد الرب أن يحرره من رباط خطاياه. كان مثل سجينٍ في جسده، ما أغرب هذا السر!! لقد أخضع الحية وأضعف الطاغية، أي الموت، بل أخضعه (الموت)، بل ما هو فائق، أنه أراد لهذا الإنسان الذي تاه بالشهوة وصار سجيناً للفساد، أن يخلصه بذراعٍ ممدودٍ، ما أعجب هذا السر!! لقد مدَّ الرب يديه ورفع الإنسان من سقوطه. الذي سقط في الفردوس ينال بخضوعه تعويضاً من السماء؛ لأن الكلمة نفسه جاء من السماء إلينا (١١: ١١١ و ١-٣).

في الكتب السبعة تحت اسم المتنوعات يشير أكليمنضس عدة مرات إلى خلق آدم (٢: ١٣ — ٢: ١٩ — ٣: ١١ — ٣: ١٢ — ٣: ١٤ — ٣: ١٦ — ٣: ١٧ — ٤: ٢٣). يهمنا فقرة في كتاب المتنوعات (٣: ١٧ و١٠٠) وهي شرح لكلمات المزمور (٥٠: ٧): "بالخطية حبلت بي أمي"، حيث يعلق اكليمنضس معارضاً تعليم الغنوصية بأن الإنسان أخطأ في العالم الروحي وسُجِنَ في الجسد، وكان هذا النص (مزمور ٥٠: ٧)، نصاً مفضَّلاً عند الغنوصيين، فيقول:

"اخبروني متى ارتكب طفلٌ وُلِدَ لتوه الزنى، وكيف لمن لا يملك القدرة على التصرف أن يقع تحت لعنة آدم؟ ... وعندما يقول داود: "هانذا بالخطايا حبل بي وبالآثام ولدتني أمي"، فهو يشير إلى الحكمة النبوية عن حواء كأُمٍ له، ولكن حواء -ومعنى اسمها أم كل حي- وحتى لو كان داود قد حُبِلَ به بالخطية، فهو لم يخطئ، ولا هو ذاته خطية".

بالطبع قرأ أوغسطينوس كلمات المزمور بشكلٍ آخر يعود إلى الانتماء الأول لهرطقة ومدرسة ماني *Mani* فقد رأى مثل كل المانويين والغنوصين أن الشر يُولد معنا

وفينا بالعلاقة الزوجية، وينتقل بالتوالد الطبيعي. ولكن الشر لا وجود له مثل وجـــود الأشجار والأنهار والجبال، هذه كائنات خلقها الله. ولكن الشر هو ســـلوك وخـــبرة وعمل إرادي وفكر ولذة وشهوة .. الخ هو تصرُّف أو تصرُّفات إرادية لا يمكن نقلها من إنسان لآخر إلَّا إذا اشترك الآخر في الشر مع الشرير، كَمَن يسرق ويضم إليه آخر مثله، لصٌّ يسرق معه أو كمن يزني مع آخر.

الفصل الثالث

بداية اللاهوت المسيحي
العلَّامة أوريجينوس (١٨٥-٢٣٢)

مقدمة

جاءت الأبحاث والدراسات المعاصرة، وكان أهمها قاموس المصطلحات اليونانية الذي قدَّمه إلينا الأستاذ السابق بجامعة كامبريدج *G. Lampe* لتؤكد أن العلَّامة السكندري قدَّم للكنيسة الجامعة معظم المصطلحات اللاهوتية التي تظهر بعد ذلك في مؤلفات الآباء في القرن الرابع. بل وتؤكد أنه هو المسئول عن تنظيم الحياة الروحية، الذي عاد ونظَّمه من جديد إيفاجريوس؛ لأن "اتحاد النفس بالمسيح" شُرِحَ بشكلٍ كامل في العظات، وفي شرح سفر نشيد الأناشيد. كما أن كتاب المبادئ[1] الذي نظَّم التعليم إلى ثلاثة أجزاء: الآب والابن والروح القدس، هو أساس كل ما كُتب بعد ذلك تحت عنوان اللاهوت النظامي *Systematic* حتى آخر ما طُبع أخيراً للعلامة الأمريكي *T. Oden* في ثلاثة أجزاء.

حسب الأصل اليوناني، وترجمة روفينوس الذي إليه يعود الفضل في الاحتفاظ بالترجمات اللاتينية، بعد هبوب عاصفة حقد وكراهية عمياء ضد أوريجينوس جعلت آباء قيصرية كبادوكية يجمعون تحت عنوان "الفيلوكاليا" مجموعة منسقة من كتابات أوريجينوس لتكون في يد القراء بعد أن امتدت يد التدمير والملاحقة لما كتبه

(١) حقق العلامة الألماني Roetschau النص اللاتيني والشذرات الباقية من الأصل اليوناني.

أوريجينوس، بسبب العداوة الشديدة الكامنة في النفوس والتي تُسقَط على الآخرين *Projected* لعل حمل الكراهية يخف بعد أن وجد الغاضبون "كبش الفداء".

نقول إنه حسب الأصل اليوناني، لا يظهر في كتاب المبادئ أي إشارة، ولو بشكل غير مباشر لما عُرِفَ في الغرب باسم "الخطية الأصلية". وكان أوريجينوس هو أول من أبرز أن آدم نال هبة الروح القدس في نسمة الحياة (المبادئ ١: ٣ و٦) وهو ما نراه في طقس كنائسنا في المعمودية، وفي الرسامات: "نفخة الروح القدس".

ولا يشرح أوريجينوس سقوط آدم بنفس طريقة أوغسطينوس، أي الفرد الواحد الذي أخطأ، بل الإنسان الذي جلب الموت بالخطية. فحتى نهاية القرن الخامس لم تكن الخطية هي محور التعليم، بل الموت، ولأسباب سياسية بحتة، وهي زواج الامبراطورية بالكنيسة، وضرورة تكوين المواطن الصالح الذي لا يخطئ، أصبحت الكنيسة تقدِّم نموذج هذا المواطن الصالح، ولكنها أغفلت قضيتين: **الأولى** الموت، **والثانية** هي تحول الإنسان من صورة الله إلى صورة لكيانه هو.

وفي الشرق، عندما انتشر الإسلام أصبحت المعصية أو الخطية أو الخوف من عصيان الشريعة هو المحور الذي سار في نفس الخط الموازي للغرب، مع ملاحظة أن العصر الوسيط كان ولا زال في المصادر القبطية العربية يرى أن موت آدم هو الذي انتقل إلينا، حتى جاءت الإرساليات الكاثوليكية والإنجيلية لتنقل إلينا التعليم الغربي، ويصبح هذا التعليم هو الأرثوذكسية عندنا، بينما هو تعليم يفتقر إلى الأصالة الأرثوذكسية.

أوريجينوس مثل إيريناوس، اعتبر حواء رمزاً للكنيسة، كما أن خلق آدم هو بشارة بالآتي يسوع المسيح (المبادئ ٤: ٣ و٧).

مثال الآتي (رو ٥: ١٢–١٤):

يقول العلامة أوريجينوس إن آدم هو رمزٌ للمسيح، "وكما ملك الموت من آدم إلى موسى"، ومن الحماقة أن يظن أحدٌ أن المسيح مثل آدم (في الخطية)، لذلك أضاف الرسول فوراً: "ولكن ليس الهبة مثل المعصية"، وبدأ يشرح كيف صار آدم وبأي معنى

رمزاً للمسيح، فهو يقول:

"وإذا مات الجميع بمعصية الواحد أي آدم كما هو واضح. كم بالحري بنعمة الله وعطية النعمة بالإنسان الواحد يسوع المسيح تصل لكثيرين". هذا يعني "إذا وجد الموتُ مكاناً بخطايا الواحد، ومنه انتشر إلى كل إنسان، فكم بالحري تصل نعمة الله ...". واضحٌ هنا أن الكلام هو عن الموت (الكتاب الخامس فصل ٢ فقرة ٢ ص ٣٩٩).

وتستمر المقارنة بين انتشار الموت من آدم وسريان الحياة من المسيح، وهو ما يجعل المسيح آدم الثاني (الكتاب الخامس فصل ٢ فقرة ٤ وفقرة ٥ وفقرة ٩).

عظات أوريجينوس على سفر التكوين

كتب العلامة أوريجينوس مجموعة من العظات على سفر التكوين سنة ٢٤٤ ضاع الأصل اليوناني، وحفظ لنا روفينوس القسم الكبير لها في العظات على سفر اللاويين.

حسب العظة ١: ١٣ على سفر التكوين في النص الذي نشره *Baehrens* آدم هو "صورة الابن المتجسد". والفردوس هو الكنيسة التي يدخلها كل آدم لكي يُخلق من جديد في المعمودية، وينال الطعام الروحي (مختارات من سفر التكوين راجع مجلد ١٢: ٩٤). كما شرح العلَّامة "الأقمصة الجلدية" على أنها رداء الموت، أي تحول الجسد إلى الموت (مختارات من سفر التكوين مجلد ١٢: ١٠١).

في العظة الثامنة على سفر اللاويين، وهو أطول نص عند العلَّامة لشرح شريعة التطهير، قرأ أوريجينوس (لاويين ١٢: ١-٨)، حيث يذكر السفر أن المرأة "إذا حبِلَت وولدت ذكراً تكون نجسةً سبعة أيام ... الخ". ولم يغب عن عقل العلَّامة أن القديسة مريم ذهبت في اليوم الثامن لتقدم ما يخص شريعة التطهير (لوقا ٢: ٢١ - ٢٤). وسأل: ماذا كانت الحاجة إلى أن تقدِّم القديسة مريم ما يخص ذبيحة التطهير؟ من أي شيء كان يسوع محتاجاً إلى التطهير؟ وخاض العلامة في شرح شريعة التطهير، وهذه مختارات من نص طويل جداً لم نحذف منه شيئاً:

"تعالوا الآن إلى يسوع الطبيب السمائي، وادخلوا مشفاه أي الكنيسة ... يسوع هو الطبيب، وهو كلمة الله الذي يُعِدُّ الدواء لكل مرضاه".

وبعد أن يقتبس نص سفر اللاويين (١٢: ١-٢) يسأل العلامة:

"إن ما كُتب في الشريعة خاصٌ بالمرأة، ولكن ماذا عن مريم، فقد قيل إنها عذراء وحبلت وولدت؟ وهذا يعني أن النساء وحدهن يحملن حِمل الشريعة الثقيل، أمَّا العذارى، فهن أحرارٌ من هذا الحِمل ... ومع أن مريم دُعيت "امرأة" لأن الرسول يقول: "ولما جاء ملء الزمان أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة، مولوداً تحت الناموس لكي يفدي الذين تحت الناموس" (غلا ٤: ٤-٥) ... هي امرأة، ليس لأنها فاسدة، بل لأنها تنتمي إلى جنس النساء. وشرح الرسول السبب في أن الله عندما أرسل ابنه، فقد جاء إلى العالم بنفس الوسيلة التي تخصنا نحن جميعاً (الحَبَل والولادة) ... ويوجد شرحٌ سِرِّيٌّ *Mystical* فَصَلَ مريم عن جنس النساء؛ لأنها ولدت ولم تحبَل بزرع بشرٍ، بل بحلول الروح القدس وقوة العلي (لوقا ١: ٣٥)" (٨: ١-٢).

ثم يسأل العلَّامة عن سبب نجاسة المرأة التي تلد، ويذكر تقديم ذبائح التطهير حسب قدرة المرأة ويقول نصاً وبالحرف الواحد:

I myself in such matters dare to say nothing.

"أنا نفسي -عن هذه الأمور- لا أتجاسر أن أقول شيئاً"[١].

وشرح بعد ذلك كيف لَعَنَ كل السابقين في العهد القديم يوم مولدهم، بل لم يجد أوريجينوس في العهد القديم من احتفل بعيد ميلاده سوى فرعون الذي قتل رئيس الخبازين (تك ٤٠: ٢٢)، وفي العهد الجديد، هيرودس الذي قطع رأس يوحنا المعمدان (مرقس ٦: ٢٧). ومع أن أرميا تقدَّس من البطن، إلَّا أنه لعَنَ يوم مولده (ارميا ٢٠: ١٤-١٦)، وكذلك أيوب (٣: ٣-٨)، وداود أيضاً قال: "بالخطايا حبلت أمي"

(١) راجع العظات على سفر اللاويين – مجموعة آباء الكنيسة مجلد ٨٣ ص ١٥٦ من الترجمة الانجليزية.

(مزمور ٥٠: ٧). "وكلُّ نفسٍ تُولَد في الجسد، تتدنس بدنس الخطية" (عظة ٨: ٥ ص ١٥٧). ويضيف بعدها مباشرةً: "ليس أحدٌ بلا دنسٍ، ولو كانت حياته يوماً واحداً على الأرض" (أيوب ١٤: ٤-٥)، ثم يؤكد:

> "وإلى هذا يجب أن نضيف السبب: لماذا تُعطى المعمودية في الكنيسة لمغفرة الخطايا حسب التسليم الكنسي؟ لأن المعمودية تعطى للأطفال لمغفرة الخطايا، ولفك أسرهم بنعمة الغفران؛ لأن المعمودية ليست شيئاً يضاف بلا فائدة" (٨: ٥ المرجع السابق ص ١٥٨).

على الفور، يبدو أن أوريجينوس يؤيد تعليم الكنيسة الرومانية، ولكن القارئ يجب أن يكون على حذر، فهو لا يستخدم المصطلح الذي عُرف في القرن الخامس في الغرب: "الخطية الأصلية"، ولكنه هنا يؤكد ما سبق هو نفسه -أي أوريجينوس- وسقط فيه دون وعي، عندما تبنَّى فكرة سقوط النفس في العالم الروحي التي أخذها من أفلاطون والتراث اليوناني السابق على المسيحية ويُعرف باسم *meta empsychos* أي تناسخ الأرواح، وكان تعليماً سائداً في الشرق. ويبدو أن النص اليوناني لكتاب المبادئ كان معروفاً لجيروم لأنه يذكر أن أوريجينوس سقط في هاوية تناسخ الأرواح (الرسالة ١٢٤ إلى *Aviths*). وعموماً، فنَّد القديس كيرلس عمود الدين هذه الفكرة بعنفٍ ظاهرٍ، وسخريةٍ تامةٍ في شرح إنجيل يوحنا، الفصل التاسع من الكتاب الأول، ووضع ٢٢ رداً (نُشِرَت بالعربية في شرح إنجيل يوحنا للقديس كيرلس)، ورغم فقدان الثقة في نص كتاب المبادئ، إلَّا أن العظة ٦ في شرح سفر يشوع يظهر منها أن آدم خُلِقَ في السماء؛ لأن العلَّامة يقول:

> "في الأسفار، أريحا هي العالم المتغير الزائل؛ لأننا -على سبيل المثال- نقرأ في الانجيل أن إنساناً انحدر من أورشليم إلى أريحا، وسقط بين اللصوص (لوقا ١٠: ٣٠)، وعلى الفور يبدو جلياً أن هذا رمزٌ لآدم الذي سقط في الفردوس وطُرِدَ إلى هذا العالم، وإلى كل عميان أريحا جاء يسوع لكي يُعيد إليهم البصر" (عظة ٦: ٤).

وفي العظة على (مزمور ١٢٥: ٥)، حيث يقول المزمور: "الذين يزرعون

بالدموع يحصدون بالابتهاج"، يقول أوريجينوس:

"الذين يزرعون بالدموع، يجب أن تُفهم على أنها النفوس التي حُبِسَت في الأجساد" (مختارات على سفر المزامير مجلد ١٢: ١٦٤).

بل إن ملك صور في (حزقيال ٢٨) ليس هو الشيطان والملائكة الأشرار، بل كل الكائنات العاقلة حتى آدم نفسه"[١].

وإذا درسنا جيداً نص العظة ١٤ على إنجيل لوقا، نجد شرحاً غريباً لا يمد المدافعون عن الخطية الأصلية في كتابات أوريجينوس بأي دليل، فهو يقول:

"هل كان يسوع محتاجاً إلى التطهير؟ هل كان دنساً، ولحقه شيء من الدنس؟ يبدو أنني أتجاسر في السؤال؟ ولكن سلطة الأسفار تقودني. إذا اعتبرنا ما يأتي، وهو ما كُتب في أيوب: "ليس أحدٌ بلا دنس ولو كانت حياته يوماً واحداً على الأرض" (١٤: ٤)، وهو لم يقل ليس أحدٌ بلا خطية *Peccatum* بل ليس أحد بلا دنس *nemomudus a sorde* والدنس غير الخطية؛ لأن أشعياء يعلِّمنا هذا بوضوح قائلاً: "سوف يغسل الرب دنس بنات صهيون" (٤: ٤)؛ لأن كل نفس لَبِسَت جسداً إنسانياً *CorporeInduta* لحقها نوعٌ من الدنس، ويجب علينا أن نعرف أن يسوع تطوَّع في قبول هذا الدنس من أجل خلاص كل من أخذ جسداً إنسانياً. اسمعوا جيداً ما يقوله النبي زكريا "يسوع (يشوع) لبس ثياباً متسخة" (زكريا ٣: ٣).

هذه الكلمات كُتِبَت ضد الذين يعلِّمون بأن جسد ربنا لم يكن جسداً إنسانياً، بل جسداً كُوِّن من عناصر سمائية روحية"[٢].

ولكن، يبدو أن النص الوحيد لوجود النفس قبل وجودها في الجسد، أي في العالم الروحي هو في كتاب المبادئ (٢: ٩ و٣)، فقد اعتمد أوريجينوس على تحليل

---

(١) ضاع شرح حزقيال، وحفظ لنا جيروم هذه الفقرة من شرح سفر حزقيال (الآباء اللاتين مجلد ٢٥: ٢٦٩)، وكان جيروم من خصوم أوريجينوس، وربما هذه الشذرة صحيحة. الله وحده يعلم.

(٢) راجع النص اللاتيني في مجموعة الينابيع المسيحية SC مجلد ٨٧ ص ٢١٩-٢٢٣.

الكلمة اليونانية ψυχή أي ψύχεσθαι ما هو قابل للبرودة *Cold* و لم يَعُدْ للأصل العبراني: "نشمة" أو "نفس"[١].

شرح نص رو ٥: ١٢ للعلَّامة أوريجينوس:

يقول أوريجينوس:

"سقط كل البشر في الموت بسبب أن الكل أخطأ ومات. الكل: هابيل وأخنوخ ومتوشالح ونوح وإبراهيم، وكل القديسين اختبروا هذا الدنس" (شرح رومية ٥: مجلد ١٤: ١٠١١-١٠١٢).

وفي شرح عدد ١٤ يقول:

"ملك الموت من آدم حتى الشريعة على الذين لم يخطئوا خطية (تعدي) آدم أي الذين لم يأكلوا من شجرة المعرفة وطردوا من الفردوس" (مجلد ١٤: ١٠١٨).

(١) ليت الذين يتمسكون بالتحليل اللغوي دون العودة إلى الإيمان، يتعلمون من كبوة رجل عظيم جداً سقط سهواً أو عن علم، فهو لا يملك أن يشرح لنا فكره، ولكن ما تركه يكفي.

الفصل الرابع

القديس أثناسيوس الرسولي "بحق"
(حوالي ٢٩٩ – ٣٧٣)

تُعد الرسالة إلى الوثنيين وتجسد الكلمة من أهم مؤلفات القرن الرابع. ولا نريد هنا أن نكرر ما سبق ونشرناه في محاضرات في تجسد الكلمة الجزء الأول والثاني ونشر على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية، وطبع في عام٢٠١٠.

في الرسالة إلى الوثنيين يؤكد ما سبق وذكرناه: "الشر لم يكن له وجود من البدء بل هو غير موجود الآن في القديسين" (٢: ١)؛ لأن الشر من اختراع الإنسان، وهو ثمرة المخيلة، ولذلك اخترع الإنسانُ الشَّرَّ على صورته هو ومثاله هو، وهو ما أدى إلى الوثنية.

في هذه العبارات القصيرة والخصبة يضع أثناسيوس لنا الخط الفاصل بين المسيحية الأرثوذكسية وسائر ديانات الأرض، بل وتعليم الشيع. ولعل أقوى عبارة قيلت عن الشر، ولا تزال تحمل الكثير، هي عبارته الموجزة جداً: "صوَّر البشرُ لأنفسهم الأصنام، وجعلوا مما لا وجود له كما لو كان له وجوداً حقيقياً" (٢: ١)، بينما وجود هذه الأشياء هو في العقل الإنساني وحده.

هذه هي مأساة الإنسان: أن يصبح فكره = وجوده، وأن يصبح الخيال = الواقع.

يفهم أثناسيوس أن آدم هو الإنسانية؛ لأن شرح الخلق في الفصل الثالث هو عن خلق "الجنس البشري" (٣: ١). حيث يقول:

"لكن البشر (وليس آدم وحده) تخيَّلوا ما هو رديء على أنه الأفضل،

وتركوا تأمل الأفضل، اختاروا ما هو محسوس وقريب من كيانهم، وما هو قريبٌ هو الجسد وحواسه، ولذلك تحوَّلت عقولهم من الوجود الحقيقي الذي يدركه العقل، وبدأوا يحددوا وجوداً آخر حسب كيانهم وحسب ما هو قريب من الجسد والحواس" (نصٌّ موسَّعٌ من أجل شرح مجموعة من الكلمات اليونانية ليس لها نفس المقابل في العربية. راجع النص اليوناني ص ٨ في النص المحقق: Oxford Early Christian Text, 1971 تحقيق R. W. Thomson).

ويُكمِّل:

"وعندما حدَّدوا كيانهم، وصار الجسد والحواس، هي مكونات هذا التحديد، قادهم هذا التحديد إلى الأهواء الذاتية، فسقطوا في الشهوات الجسدانية، واختاروا الخير كما عرفوه، عوضاً عن تأمل الخير الذي من الله" (٣: ١ ص ٨ المرجع السابق).

وماذا كانت نتيجة هذا التحول؟

"هكذا بددوا زمانهم، ولم يرغبوا في الابتعاد عما هو قريب من الإرادة، فسجنوا أنفسهم في لذَّات الجسد، فدخلت الفوضى في نفوسهم التي تدنَّست بكل شهوةٍ، ونتيجة ذلك أنهم نسوا القوة التي أخذوها من الله في البدء (عندما خلقوا)" (المرجع السابق).

الغواية من الحية:

"لكن بغواية الحية، ترك آدم تأمل الله، وبدأ يحدد كيانه، وكلاهما سقط في الشهوات الجسدانية، فأدركا أنهما عريانين، وعندما عَرِفا ذلك، خَجِلا. أدركا معاً أنهما لم يفقدا الثياب، وإنما فقدا تأمُّل الأمور الإلهية، وأن عقلهما استدار إلى ما هو ضد الله، أي في اتجاه معاكس" (المرجع السابق ص ٨).

ماذا حدث إذن؟ ما هو السقوط؟

"تركوا ما هو حقيقي والرغبة في الوجود الحقيقي -أنا أعني الله- عند ذلك أسلموا أنفسهم إلى رغباتٍ متنوعةٍ متناقضةٍ خاصةٍ بالجسد. عند ذلك -

وكما كان من المتوقع- خضعوا لكل الرغبات، وبدأوا في اعتبارها ضرورية للوجود، حتى انهم بدأوا يخافون من فقدانها. بهذا النمط من الحياة، صارت النفس تحتمي بالخوف والرعب واللذات وأفكار الموت" (المرجع السابق، ص ٨ – ١٠).

دخل الموت أولاً كخوف:

"وبعدم الرغبة في ترك هذه الرغبات، تكوَّن الخوف من الموت والانفصال عن الجسد، وبالإضافة إلى ذلك، الاشتهاء وعدم الشعور بالاكتفاء، وإتمام غاية الشهوة، تعلَّمت النفسُ القتلَ وعدم الصدق" (فصل ٣ ص ١٠).

هذه الترجمة هي إعادة صياغة *Paraphrased* لأن البحث عن تحول الكيان الإنساني، هو الذي حدد *defined* للإنسان كياناً غير الذي خُلِق؛ لأنه الكيان الذي اختاره الإنسان رافضاً صورة الله.

وينقلنا القديس أثناسيوس في الفصل الرابع من نفس الكتاب إلى حقيقة كيانية، وهي أن النفس، وهي في التأمل أو الثاؤريا، لم ترَ الرغبةَ غايةً، و لم تكن قد أخطأت في فهم ما هو "صالح" أو "خير"، ولكن بعد أن استدارت الإنسانية بعيداً عن الله، صارت مثل إنسان مجنون يصنع سيفاً لكي يقتل كل من يقابله في الطريق معتقداً أن هذا تصرفٌ صائب" (فصل ٤: ١ ص ١٠).

وهناك عنصرٌ آخر ذو دلالة، لا يجب أن يغيب عنا، وهو سيادة الطبيعة الفاسدة التي دخل عليها فكر الموت، وصارت تخاف من أن تفقد شيئاً ما تريده، وهكذا يقول أثناسيوس:

"وعندما اشتعلت النفس باللذة بدأت تمارسها بكل وسيلة ممكنة؛ لأنها صارت تتحرك بسهولة وبدون عائق بالطبيعة؛ لأنها ارتدَّت عن الخير وظلَّت دائمة التحرك نحو ما تريد. و لم تعد تتحرك في طريق ما هو صالح أي الفضائل أو تتحرك؛ لأنها ترى الله وتتحرك ناحيته، بل صارت تستدعي وتفكر فيما هو غير حقيقي، فتحولت قواها لأنها أساءت إلى قواها التي استخدمتها في تحقيق رغباتها. هذا التحول حدثَ؛ لأن النفس خُلِقَت بحرية

إرادة، وكانت تستطيع أن تميل إلى الخير، أو تبتعد عن الخير؛ لأنها عندما تترك ما هو خير، تتصرف عكس ما هو خير" (فصل ٤: ص ١٠).

لعل القارئ أدرك من هذا أن تحول النفس في حركة دائمة نحو ما هو ليس بخير، قادها إلى الموت.

في الفصل السابع يحلل القديس أثناسيوس نظرة الغنوسيين وغيرهم للعالم المادي وكيف أن وجود إلهين هو مستحيل، وكيف أن وجود واحد منهما يعني بالضرورة إلغاء الآخر؛ إذ لا يمكن للخير المطلق أن يوجد مع الشر المطلق. وبعد ذلك في نص طويل يتكلم عن أسباب الوثنية كمظهر حقيقي لعدم إدراك الإنسانية للحياة كما هي، بل للحياة كما يتصورها العقل والخيال المشبع بالرغبات والبعيد عن الله.

الموت:

ما غاب من ٤٧ فصلاً هم عدد فصول كتاب ضد الوثنيين للقديس أثناسيوس، هو سقوط آدم ودخول الموت، ليعود إلى هذا الموضوع بالذات في تجسد الكلمة.

كتب القديس أثناسيوس عن "خلود الموت" كلماتٍ قاطعة: "موتاً تموت لا تعني بالقطع مجرد الموت فقط، بل البقاء في فساد الموت إلى الأبد" (٣: ٥). جاء حكم الموت وملك الموت (رو ٥: ١٤) هي نص هام في (فصل ٤: ٤)؛ لأن الحرمان من الوجود إلى الأبد هو البقاء في الموت؛ لأن الإنسانَ فانٍ بطبيعته؛ لأنه خُلِقَ من العدم (٤: ٦)، وكان يستطيع أن يعيش مثل الله الكائن (٤: ٦)؛ لأن النعمة، أي الصورة الإلهية كانت تدعونا إلى أن "نعيش حسب الله" (٥: ١)، وصار البشر "هم أنفسهم السبب فيما حدث لهم من فساد الموت" (٥: ١). كان الجنس البشري سائراً نحو الهلاك (٦: ١)؛ لأن الموت صارت له سيادة علينا (٦: ١).

لماذا لم يفنَ الإنسان؟

يقول العظيم حقاً أثناسيوس إن هذا ليس بسبب قدرات الإنسان، بل "كان

من غير اللائق أن تهلك الخليقة وترجع إلى العدم بالفساد، تلك الخليقة التي خُلقت عاقلة وكان لها شركة في الكلمة" (٦: ٤). ويضع أثناسيوس سبباً آخر: "لا يجدر بصلاح الله أن تفنى خليقته بسبب غواية الشيطان .. بل من غير اللائق على الإطلاق أن تتلاشى صنعة الله بيد البشر" (٦: ٥-٦)، ويسأل: "لو أن الله لم يخلق لَمَا تجرَّأ أحدٌ أن ينسب إليه الضعف، أما وقد خلقه وأتى به من العدم إلى الوجود، فقد كان سيصبح من غير اللائق بالمرة أن تفنى المخلوقات أمام عيني الخالق" (٦: ٨-٩).

وخلاصة هذا التعليم الصافي الحلو، إن ما حدث كان يتعارض مع صلاح الله، ولذلك لم تفنَ الخليقة رغم فساد الموت وسيادته.

ما هو المقصود بالموت؟

هو تحول في كيان الإنسان، حيث "نُزِعَت نعمة مماثلة صورة الله" (٧: ٤)، وهي شركة الإنسان في الكلمة اللوغوس الخالق (٦: ٤). ولذلك، ليت الذين لهم عشقٌ خاص بجعل الخطية محوراً للتعليم، يدركون أن التوبةَ كانت عاجزةً عن ردِّ الإنسان إلى حياة الشركة؛ لأن نعمة الصورة فُقِدَتْ، ولأن الموت صارت له سيادة بسبب التعدِّي، وأن حكمَ الموتِ جعلَ الموتَ خالداً، بل "خلَّدَ الفناءَ فينا" (٨: ٢). ولذلك، لا مجال هنا للشرح القانوني السائد في بعض كتابات بعض الإكليروس؛ لأن الله "رَحِمَ جنسنا وأشفق على ضعفنا وتراءف على فسادنا"، بل "لم يحتمل أن يرى الموتَ قد صارت له السيادة علينا" (٨: ٢).

وبدون أن نعود إلى محاضرات في تجسد الكلمة الجزء الثاني، وفي عُجالةٍ قصيرةٍ: "لقد تجسد الربُّ لكي يبيد الموت" (٨: ٤) لا لكي يدفع ثمن خطايا البشر. "ولكي يعيد إلينا الحياة ليس بالصلب وحده، بل بنعمة القيامة (٨: ٤).

الفصل ٢٠ الذي زوَّره الأنبا بيشوي:

"إن سبب ظهور المخلص في الجسد هو أن يحول الفاسد إلى عدم فساد، وأن يجعل الإنسان المائت غير مائت؛ لأن ربنا يسوع هو الحياة" (٢٠: ١). فالموضوع هنا

هو تجديد الإنسان، وردّ الحياة وغلبة الموت.

وقد شرحنا معنى وفاء الدين المستحق على الجميع، وهو استحقاق الموت. وهنا يظهر بوضوح أن استخدام تعبير الخطية الأصلية هو مستحيل حسب سياق الكلام للقديس أثناسيوس:

"كان الجميع مستحقين الموت، فلأجل هذا الغرض جاء المسيح بيننا ... قدَّم ذبيحةً عن الجميع، فأسلم هيكله للموت عن الجميع:

أولاً: لكي يبررهم ويحررهم من **المعصية الأولى**.

وثانياً: لكي يُثبت أنه أقوى من الموت، مُظهراً جسده الخاص أنه عديم الفساد، وأنه باكورة القيامة" (٢٠: ٢ ص ٥٧).

والمعصية الأولى هي سبب حكم الموت على الكل، ولذلك تحول الإنسان من عدم الفساد إلى الفساد. ولا يمكن الحديث عن الخطية الأصلية هنا لأن السيادة ليست للخطية، بل للموت كما هو واضح من سياق الشرح للقديس اثناسيوس.

والتحرير من المعصية الأولى ليس هو غفران الخطايا حسب الشرح القانوني الذي ساد في العصر الوسيط، بل **هو ردّ الحياة التي فقدها الإنسان، هو إعادة تجديد الكيان.**

ومَن يريد أن يزوِّر، عليه أن يبحث عن كلمة "وراثة" في كل مصادرنا الأرثوذكسية، فسوف يجد أنها خاصة بوراثة الملكوت والحياة الأبدية، وليس بالخطية الآدمية. غفر الله لكل من انحرف عن الإيمان القويم.

اعتراضٌ لمن يفهم:

لو كان الشر وراثياً، وهذه فكرة شيطانية مدمرة؛ لَترتَّب على ذلك الآتي:

١– إذن لم يجدد المسيحُ شيئاً؛ لأن حتى الذي يخطئ بعد المعمودية يورِّث شرَّه لغيره بالزواج.

٢– لو كان الشَّرُ قانوناً مثل قوانين الوراثة، فما هو الداعي للتجسد؟ كان يجب على الله –فقط– أن يغير هذا القانون، لا أن يرسل ابنه الوحيد لكي يموت على

الصليب ويقوم لكي يجدد ذهن الإنسان خالق الخطية في عقله.

٣- ولماذا جعلت الكنيسة الزواج سراً كنسياً؟ فهي حسب تعليم وراثة الخطية تجعل عائل الشر وناقله، أي الزواج سِرَّاً مقدساً. بل كيف غاب من وعي الرسول بولس أن يجعل اتحاد الرجل والمرأة مثالاً لاتحادٍ أعظم، وهو اتحاد الرب بجسده الكنيسة (أفسس ٥: ٢٨-٣٢)؟ وعلى ذلك تصبح وصية الرسول: "يجب على الرجال أن يحبوا نساءهم كأجسادهم"، هي وصية خاصة بالاستمرار في الإنجاب وبنشر الشر الموروث؟

يا ليت الذين عاشوا في ظلمة الخطية، ونالوا بكالوريوس مدرسة التطرف، يدركون أن وراثة ذنب آدم ووراثة الخطية هي أحد روافد الإلحاد الأوروبي؛ لأن ثورة الملحدين على هذه النظرة الدونية للإنسان تدور حول مجيء الإنسان إلى العالم حاملاً وزر إنسان آخر.

الفصل الخامس

آباء قيصرية كبادوكية
باسيليوس – النيسي – التريتري

القديس باسيليوس (٣٣٠-٣٧٩)

البحث عن خطية أصلية يرثها الجنس البشري من آدم وحواء في كل كتابات القديس باسيليوس هو مثل البحث عن إبرة صغيرة في كوم كبير من القش، أي أنه بلا جدوى، فهو لا يذكر وراثة الخطية في شرح الأيام الستة الأولى الخاصة بالخليقة والتي أخذت الاسم اليوناني *Hexameron* ولا حتى في كتاب يعتبر أول تدوين للتسليم الكنسي بعنوان: "عن الروح القدس"[١] سبق ترجمته ونشره بالعربية، ولا حتى في مجموعة العظات في مجلد ٣١ من مجموعة الآباء اليونانيين.

لو كان هذا الموضوع، أي الخطية الأصلية، بهذا الحجم الذي آل اليه بعد ذلك؛ لما قابلنا صمت واحد من أكبر لاهوتيي القرن الرابع حارب الأريوسية والأنومية وبدعة مقدونيوس و لم يعش لكي يرى المجمع الثاني في ٣٨١م.

بشكلٍ عام، دون تفاصيل، يذكر سيادة الموت على الجنس البشري في عظة ١٩ على مزمور ٤٨، إذ يذكر سقوط الأشرار ويقول:

> "ساد الموت عليهم من زمان آدم إلى شريعة موسى حتى مجيء الراعي الذي بذل حياته عن خرافه لكي يعطي لهم الحياة جميعاً ويخرجهم من سجن

---

(١) منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية www.coptology.com

الجحيم إلى صباح القيامة .." (١٩: ٩ راجع الترجمة الانجليزية في مجلد ٤٦ من آباء الكنيسة ص ٣٢٦-٣٢٧).

وفي عظة ٢٢ على مزمور ١١٤ يقول:

"الرب رحيم وصادق (عادل أو بار) في موضع آخر يوحِّد الكتاب المقدس رحمة الله بالبر (العدل) ويعلمنا أن رحمة الله ليست بدون قضاء ولا قضاء الله بدون رحمة. وعندما يشفق علينا فهو يقدم رحمته بكفاية للمستحقين، وعندما يحكم، فهو يحكم بالنظر إلى الضعف، مقدِّماً لنا العطف ليس بنفس مقدار الضعف الذي فينا. وإلهنا يعلن رحمته لأن الرحمة هي عطف على البائسين، وهي عندها شعور بالشفقة على الضعفاء. لأننا نشفق على الإنسان الذي سقط من الغنى الفاحش إلى الفقر المدقع، ونعطف على الذي سقط من قمة القوة الجسدانية إلى أدنى درجات الضعف، والذي كان يفتخر بمجد الجمال ونعمة الجسد وآل إلى الذي دمره من خطايا بشعة. لأننا نحن أنفسنا كنا في زمان سابق في مجد نحيا في الفردوس، ولكن صرنا نحيا في خزي واحتقار بسبب سقوطنا، ولكن الله أعلن لنا رحمته لأنه رأى كيف كان البشر، وكيف صاروا، ولذلك طلب آدم وبصوت الرحمة قائلاً: "آدم أين أنت" (تك ٣: ٩). ومَن يعرف كل شيء لم يكن يجهل، ولكنه كان يريد من آدم أن يعرف ماذا كان وكيف أصبح "أين أنت" عوضاً عن "في أي هلاكٍ قد سقطت من مكانتك العالية؟ "الرب يحفظ الصغار، لقد اتضعت فخلصني" (مزمور ١١٤: ٦)، وحسب الإدراك (المنطق) الإنساني الطبيعي، لن تقوى الطبيعة الإنسانية على البقاء (القيام) أن لم يكن الرب قد حفظ هؤلاء الصغار، بل أن تحفظ العناية الإلهية كيف يبقى الجنين في بطن أمه..". (راجع الأصل اليوناني مجلد ٢٩: ٤٨٩).

في العظة ٦ على أيام الخليقة الستة يذكر بداية الخطية والموت، وينسب هذا إلى الشيطان. كان باسيليوس حريصاً على التصدي لتعليم ماني بأنه يوجد إله شرير خلق الشر، ولكن باسيليوس مثل كل الآباء يؤكد في العظة ٢ على أيام الخليقة الستة:

"لا يمكن لأحد أن ينكر وجود الشر أو أن الشيطان ليس له وجود. فماذا نقول؟ الشر ليس له حياة ولا جوهر حي له، بل هو تحوُّلٌ في النفس.. لذلك لا تتصور انه توجد طبيعة أصلية للشر، بل على كل واحد منا أن يرى أنه هو مصدر شروره" (٢: ٥ المرجع السابق ص ٢٨ راجع عظة ١٦ على مزمور ٣٣).

القديس غريغوريوس النيسي (رقد في عام ٣٨٦)

رفض النيسي كل ما يمكن أن يُقال عن تناسخ الأرواح (مجلد ٤٤: ٢٢٩)، بل يسأل في سخرية: إذا قال الله للبشر أكثروا وأثمروا واملأوا الأرض، فكيف يمكن للأرواح أن تتكاثر وهي أرواح فقط (المرجع السابق ١٨٨).

كتاب "خلق الإنسان" هو مقال فلسفي لاهوتي في آن واحد. الإنسان كائنٌ حي، والجسد هو أداة خُلِقَت بشكلٍ يُناسب الإدراك والقوة العاقلة (فصل ٨: ٨). وشرَحَ كيف أن أعضاء الجسد المتنوعة تؤكد القوى العاقلة الروحية للإنسان: "بل أن الإنسان خُلِقَ ليكون قوى عاقلة في الكون" (٩: ١-٢). والعقل يعمل بواسطة الحواس (١٠: ١-٣). أما عظمة الإنسان فهي "حسب تعليم الكنيسة ليس لأنه مثال لأي شيء في العالم المخلوق، بل هو كائن حسب صورة وطبيعة الخالق" (١٦: ٢). وآدم ليس اسم شخص، بل هو الاسم العام لكل البشر (١٦: ١٧). في الفصل ١٧ من نفس الكتاب يتوقف النيسي عند الإنجاب والتكاثر ليقول: إن آدم عرف حواء وتمت الزيجة بعد الطرد من الفردوس، وأن هذا يعني أنه لم تكن للروح وجودٌ سابق على وجودها في الجسد، ثم يضيف: "على نحوٍ ما، الخطية التي دخلت إلى العالم كانت مفيدة لحياة الانسان؛ لأن الجنس البشري كان سيظل قاصراً على اثنين فقط (آدم وحواء)" (١٧: ١).

في كتاب التعليم الخاص بالموعوظين يؤكد غريغوريوس أن الله لم يخلق الشر (٥: ١١). وأن حسد الشيطان هو سبب العداوة للإنسان، وهو الذي دبَّر سقوط الإنسان (٧: ٢٥). وعندما يشرح "الأقمصة الجلد"، فهي ليست الجسد كما قال

أوريجينوس، بل هي الاستعارة الخاصة بالموت (٨: ٤-٥).

في مقالة "معمودية المسيح" لا يذكر شيئاً عن غفران قضية آدم، بل من الملاحظ أن كتابه عن تعليم الموعوظين لا يشير إلى معمودية الأطفال بالمرة (٣٥: ١) وهكذا هو مثل القديس باسيليوس لا يمكن أن ننقل منه سطراً واحداً يؤكد وراثة الخطية من آدم.

القديس غريغوريوس النزيزي (٣٢٥-٣٨٩):

تُعد المقالات اللاهوتية من كنوز الأدب المسيحي. كان غريغوريوس أسير التعليم بوجود آدمين Two Adams الأول الإنسان الذي خُلق والذي جلب الموت، والثاني المسيح الذي أباد الموت وسبى الجحيم"(العظة الثانية على عيد القيامة (مقالة ٤٥) من أفخم ما يكن أن نقرأ):

"اليوم أتم خلاص العالم المنظور وغير المنظور ....
المسيح قام من الأموات. لنقم نحن معه.
عاد المسيح إلى ما هو عليه، لنعود نحن إلى المسيح الذي تحرر من القبر،
ولكي نتحرر نحن من رباط الخطية.
أبواب الجحيم قد فُتِحَت
الموت قد أُبيد
آدم الأول أُبعد تماماً
آدم الجديد قد أكمل الوجود
إن كان أحدٌ في المسيح فهو خليقة جديدة (٢كو ٥: ١٧)
تجددوا (عظة ٤٥: ١).
هذا هو فصح الرب
وفصح الرب هو مجد الثالوث
هو عيد الأعياد ...
إذا كنت سمعان القيرواني احمل الصليب

إذا كنت يوسف الرامي اطلب جسد يسوع
إذا كنت مريم ويوحنا وسالومي ابكِ واذرف الدموع
تراءف على حواء، تلك المرأة التي تسببت في دمارنا،
لكنها الآن صارت أول من يرى قيامة المخلص
إذا نزل المسيح إلى الجحيم، انزل معه
لأنه عندما يقوم سوف تقوم معه إلى السماء.

في نفس العظة (مقالة ٤٥: ٨) التعليم واضح عن الحياة في الفردوس:

"اعطى الله للإنسان قانون كمصدر لحرية الإرادة لكي يمارس حريته. شجرة المعرفة ليست شراً، وإلَّا كيف زرعها الله، ولا مُنعت لأن الله كان يحقد على الإنسان .. بل كانت ستكون مصدر خير لو أكل منها في الوقت المناسب، لأن الشجرة حسب رأيي هي التأمل (الثاؤريا) النافع لمن وصل البلوغ، ولا ينفع الطماع والساذج؛ لأن الطعام الصلب يؤذي الذين هم صغار وينالون اللبن".

عندما سقط آدم، يقرر غريغوريوس:

"أبي الأول نسى الوصية التي أُعطيت له واشتهى الثمرة المحرمة، وعندما أخطأ طُرِدَ من الفردوس، ومن الله، ولبس قمصان الجلد الخشنة، أي صار جسده مائتاً .. وهنا جعل الله الموت هو (السكين) الذي يقطع الخطية؛ لكي لا يكون الشر أبدياً، فصارت العقوبة رحمةً؛ لأنه بالرحمة -كما أعتقد- يؤدِّب الله" (٤٥: ٩).

والعبارة الأخيرة مثل عبارة قداس غريغوريوس: "أنت حولت لي العقوبة خلاصاً".

الفصل السادس

القديس كيرلس الأورشليمي
(٣١٥-٣٨٦)

لم يعرف كيرلس الأورشليمي تعبير الخطية الأصلية. في العظة ٢: ٨ للموعوظين يقول:

> "ماذا إذن؟ سيقول البعض. لقد خُدِعنا. لقد تُهنا، هل يوجد خلاص بعد ذلك؟ لقد سقطنا، هل يمكن أن نقوم مرةً ثانية؟ لقد أصابنا العمى، فهل سيعود إلينا البصر؟ لقد أصابنا الشلل، هل سنسير أصحاءَ بعد ذلك؟ في كلمة واحدة: نحن أموات، هل سنقوم؟ كيف أقام لعازر؟ (مجلد ٤٢: ٣٨٩).

ليس هذا تعليماً عن الخطية الأصلية، بل عن فساد وانتشار الخطية في الجنس البشري. ومثل من سبقه يقاوم وجود الروح قبل أن توجد في الجسد (٤: ١٩ مجلد ٤٢: ٤٨). وعندما يشرح خلق آدم (٩: ٥ مجلد ٤٢: ٦٥٣) لا يذكر شيئاً عن الخطية الأصلية.

في العظة (١٢: ٥-٧ مجلد ٤٢: ٧٢٩-٧٣٣) يؤكد تجسد الرب وولادته من الروح القدس والقديسة مريم، وهو تعليم الكنيسة الجامعة. أمَّا في العظة (١٣: ٢٨ مجلد ٤٢: ٨٠٥) فهو يشرح موت آدم على هذا النحو:

> "بالشجرة سقط آدم، أنت (المسيح) بالشجرة (الصليب) أعدته للفردوس. لا تخف من الحية لأن (الله) لن يطردك خارجاً لأنه (الشيطان) قد طرد من السماء (لوقا ١٠: ١٨)".

الفصل السابع

القديس يوحنا ذهبي الفم
(٣٤٧-٤٠٧)

ترك لنا ذهبي الفم مكتبة هامة من عظات على الأسفار، لا سيما أسفار العهد الجديد. العظات على سفر التكوين كانت قد القيت في أنطاكية في صوم عام ٣٨٦، والعظات السبعة عشر الأولى تؤكد خلق العالم من لا شيء، وخلق آدم على صورة الله (عظة ٨: ٤)، وأن آدم هو سيد الخليقة لأنه يحمل الصورة الإلهية (غل ٩: ٣-٤). من الملاحظ أن ذهبي الفم يؤكد أن لغة سفر التكوين تعبِّر عن تنازل الله واستخدام الأسفار لكلمات إنسانية بحتة هي ضرورة، وتؤكد تنازل الله (عظة ١٢: ٤-٥).

الفردوس هو مكانٌ على الأرض، وليس مكاناً في السماء، وهو ما يبدو أنه كان شائعاً (عظة ١٣: ٣).

العظات على سفر التكوين أُلقيت في الكنيسة، والهدف منها ليس شرح الأسفار، بل الإيمان من خلال الأسفار، ولذلك عندما يذكر شجرة المعرفة أي معرفة الخير والشر يقول:

> "الشجرة الأولى قدَّمت الموت إلى العالم، والشجرة الثانية (الصليب) أعطت الخلود، الأولى طردتنا من الفردوس، والثانية أعادتنا إلى السماء. الأولى بمعصيةٍ واحدةٍ حَكَمَتْ على آدم التعيس (الشقي) بتأديبٍ مخيف، والثانية حرَّرتنا من ثقل خطايا كثيرة، وردَّت لنا الثقة في الله (عظة ١٦: ٦ مجلد ٥٣: ١٣٣).

ويمر ذهبي الفم على كل ما ورد في سفر التكوين دون أن يذكر وراثة ذنب

أو خطية آدم.

في العظات الأخرى توجد بعض عبارات توحي للقارئ بأن ذهبي الفم لا يعرف موضوع الخطية الأصلية، وهي على سبيل المثال عندما يشرح (متى ١٨: ٢-٣) تعليقاً على سؤال التلاميذ من هو الأعظم في ملكوت السموات؟

"ماذا قال المسيح رداً على هذا السؤال؟ لقد كشف ضمائرهم وأجاب حتى على مشاعرهم وليس على كلماتهم وحدها، فقد دعى طفلاً وكما يقول الكتاب إنه قال "إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأطفال الصغار فأنتم لن تدخلوا ملكوت السموات" (متى ١٨: ٢-٣) ... لأن الأطفال الصغار أنقياء من الحسد والمجد الباطل ومن الرغبة في الجلوس في الصف الأول والطفل لديه فضائل عظيمة البساطة" (عظة ٥٨ على انجيل متى مجلد ٤٨: ٥٦٩).

خطية آدم في رومية ٥: ١٢-٢١:

والنص المشهور في (رو ٥: ١٢) شرحه ذهبي الفم في العظة ١٠ على رومية (مجلد ٥٠: ٤٧٧ وما بعده)، حيث يقول:

"فإنه قبل الشريعة كانت الخطية، لكن الخطية لا تحسب بدون شريعة" (رو ٥: ١٣). حتى الشريعة أو الناموس، والبعض يظن أنه (بولس) استخدم هذا التعبير عن الزمان السابق على إعطاء الشريعة، أي زمان هابيل -على سبيل المثال- أو نوح أو إبراهيم لأن حتى موسى نفسه لم يكن قد وُلِد. فماذا كانت الخطية في هذه الأيام؟ البعض يقول إنه يقصد ما حدث في الفردوس؛ لأنها باقية ولا زالت مرارتها؛ لأنها ولدت الموت في كل الذين أخطأوا، ولأن الخطية سادت وأخضعتنا جميعاً، ولكن لماذا يقول (بولس) "لكن الخطية لا تحسب بدون شريعة؟" إنه يقدم هذه الكلمات كاعتراض من اليهود؛ لأنهم هم الذين يقولون ألَّا خطية بدون شريعة، فكيف افترس الموت هؤلاء الذين عاشوا قبل شريعة موسى؟ ولكن يبدو لي أن قصد

الرسول هو ما نراه في المعنى الواضح للكلمات، فهو يعني أنه قبل الشريعة كانت الخطية في العالم، أي أنه بعد إعطاء الشريعة صار تعدي الشريعة للخطية قوة سيادة، وأنها سوف تسود طالما وُجِدت الشريعة. لأن الخطية – كما يقول– لا وجود لها بدون الشريعة. فإذا كان الرسول يقصد أن تعدي الشريعة جلب الموت. فكيف مات الذين عاشوا قبل الشريعة؟ في الخطية يوجد أصل الموت، ولكن حيث لا شريعة لا خطية. فكيف ساد الموت قبل الشريعة؟ من الواضح أنه لم يكن تعدي الشريعة، بل عصيان آدم الذي دنَّس كل شيء، وما هو برهان ذلك؟ الحقيقة هي أنه قبل الشريعة مات الكل؛ لأن "الموت ملك" –كما قال– من آدم إلى موسى حتى على الذين لم يخطئوا". كيف ملكت الخطية على الذين لم يخطئوا على شبه تعدي آدم الذي هو مثال الآتي؟ آدم هو مثالٌ للمسيح. كيف ذلك؟ هو سوف يشرح –كما كان الأول (آدم) لكل الذين وُلِدوا منه وهم لم يأكلوا من الشجرة، سبباً في الموت بسبب الأكل الذي أدخل الموت، هكذا صار المسيح لكل الذين وُلِدوا منه رغم أنهم لم يصنعوا البر؛ لأنه هو (المسيح) الواهب للبر بواسطة صليبه وهو يمنح هذا بغنى للكل".

المقارنة بين واحدٍ وواحد، أي آدم والمسيح في (رو ٥)

"هو (بولس) يقدِّم لنا الاثنين معاً، عندما يقول: "كما بواحد دخلت الخطية إلى العالم"، وأيضاً: "بمعصية واحد مات الكثيرون"، وأيضاً: "ليس كما بخطية الواحد هكذا العطية"، وأيضاً: "وصار الحكم للدينونة"، وأيضاً: "كما بواحد –أو بواحد– بخطية الواحد مَلَكَ الموتُ بالواحد"، وأيضاً: "كما بمعصية الواحد"، "وكما بعصيان الواحد صار الكثيرون خطاه"، فهو لا يترك الواحد عندما يحاجج اليهود: كيف حدث هذا لنا، وكيف بالعمل التام أو الصالح، بالواحد، بشخص (أقنوم) المسيح خلَّص العالم؟ وأنتم لا يمكنكم أن تقولوا له (بولس) كيف بعصيان شخص واحد وهو آدم جاءت

الدينونة؟ لأن الخطية والنعمة لا يتساويان، وكذلك الموت والحياة لا يتساويان، والشيطان والله ليسا متساويين، فما أعظم الفرق بين الهوة التي تفصل بينهما".

الفكرة الواضحة ليست وراثة الخطية، فهو، أي ذهبي الفم، لا يستخدم التعبير مطلقاً، بل كما في افتتاحية العظة يقول:

"كما مع الطبيب الماهر الذي لا يدَّخر جهداً لكي يكتشف سبب المرض، وأن يعالج منبع السوء، هكذا بولس المبارك أيضاً. لأنه بعد أن قال إننا تبررنا وإن إبراهيم أب الآباء هو المثال، وإنه من الروح وبموت المسيح؛ لأنه مات لكي نتبرر ... يبحث في موضوع الموت وكيف جاء وكيف ساد. كيف جاء الموت، وكيف ملك أو ساد؟ بخطية واحد، ولكن ماذا يقصد؟ "الكل أخطأوا"، هذا؛ لأن الكل سقطوا، رغم أنهم لم يأكلوا من الشجرة (التي أكل منها) هو، ولكن الكل صاروا موتى (المرجع السابق عامود ٤٧٣).

ويؤكد ذلك في شرح أية ١٩ إذ يقول:

"كيف حدث أنه بمعصية واحد صار الكل خطاه؟ لأن مَن لا يخطئ لا يعاقَب لأنه هو لم يخطئ، ولكن آخر أخطأ، فصار هو خاطئاً. ماذا تعني كلمة خطاه هنا؟ أفهمها على أنها الكل وقع تحت الدينونة، أي دينونة الموت. لأننا بموت آدم صرنا جميعاً أمواتاً ... والسؤال الآن: ما هي غاية كل هذا؟".

وبعد أن يؤكد أن الرسول بولس في حوار مع اليهود الذين رفضوا أن بِرَّ الواحد يعطي نعمةً فائقة، أو فيضَ نعمةٍ؛ لأنه حتى في اليهودية نفسها، الشريعة جاءت ومعها مزيدٌ من التعديات (رو ٥: ٢٠)، ولكن ما هو فيض النعمة، أو النعمة الفائضة؟ وهو سؤالٌ إلى جيلٍ سقط تحت أسنان العدل الإلهي، لأنه هكذا يشرح القديس يوحنا ذهبي الفم: "حيث كثرت الخطية فاضت النعمة أو ازدادت النعمة جداً":

"لم تكن النعمة التي أعطاها (المسيح) لمغفرة العقوبة (الحكم) على خطايا،

بل لأجل الحياة، كما لو كانت ليس فقط شفاء إنسان من أمراضٍ كثيرة، بل أن ينال العافية والصحة والجمال والقوة وأن يعود إلى رتبته".

وقبل ذلك يقدِّم مثالاً يضرب كل فكر قانوني يسود عندنا اليوم:

"كما لو كان إنسان قد صار عليه دين بعشرة وزنات وأُلقى في السجن هو وزوجته وأولاده وعبيده أيضاً، ويأتي آخر ولا يدفع الدين فقط، بل يعطي عشرة آلاف وزنة من الذهب، ويقود السجين إلى قصر الملك وإلى عرش مجده، فلا يتذكر المدين دينه ... لأن ما دفعه المسيح يفوق بكثير ما كان علينا، مثل الفرق بين بحر الماء الذي لا حدود له بقطرة صغيرة. فلا يتأخر أي إنسان من أن يرى مقدار البركة، ولا يكتفي بأن يتكلم عن شذرة الموت والخطية، وكلاهما أُبيد؛ لأن بحر النعم قُدِّم لنا" (المرجع السابق).

في العظة ٣٦ على إنجيل يوحنا، وهي خاصة بمعجزات الشفاء عند بيت حسدا (يوحنا ٥: ٢-٣ وبعده)، يقول ذهبي الفم:

"ما هو هذا الشفاء؟ ما الذي يعلنه هذا السر لنا؟ لأن هذه الأمور لم تُكتَب بشكل عفوي وبدون هدف، بل كان رمزاً وعلامةً تُظهِر معالم ما سوف يأتي لأن ما هو فائق، وهو ما سوف يُعطى، لا يسبِّب لنا دهشةً تعطِّل فينا قوة الإيمان. فما هي المعالم التي أُعلنت عند بيت حسدا؟ معموديةٌ كانت سوف تعطى، وتملك قوةً، والعطايا العظمى. معموديةٌ تُطهِّر من كل الخطايا وتجعل كل إنسان حيٍّ بدلاً من أن يبقى ميتاً. كل هذا استُعلِن في المناظر التي ظهرت عند بركة بيت حسدا، وبما أحاط بكل الأحداث الأخرى من معاني" (مجلد ٥٩: ٢٠٥).

العظات للموعوظين:

كانت المجموعة الأولى التي نشرها *Montfaucon* هي أول ما وصلنا، إلى أن اكتشف العالم اليوناني بابادوبلوس مجموعة كاملة في مكتبة جامعة بطرسبرج، ومجموعة ثانية في مكتبة دير *St. Avronikita*.الذين درسوا هذه المجموعات من علماء الآباء

يعتقدون بناءً على تحليل النصوص، ومن خلال ما تقدِّمه أنها أُلقيت علـــى موعـــوظي انطاكية تقريباً في عام ٣٩٠. وقدَّم الأب د. *Thomas Finn* دراســـة الـــدكتوراه في الجامعة الكاثوليكية عن ليتورجية المعمودية نُشرت في عام ١٩٧٦.

يهُمُّنا في هذه العظات ما يقدِّمه ذهبي الفم من تعليم عن المعمودية – غفـــران الخطايا – سقوط آدم.

خلق الإنسان في العظة الثانية:

"من البدء ودائماً، أعلن الله شفقته على الجنس البشري. حالما خلقه من تراب الأرض، وضعه في الفردوس، وأعطاه نعمة الحياة التي لا تعرف الضرورة لكي يتنعم بكل ما في الفردوس. ولكن بسبب استغراق آدم في لذة الطعام، ولأن زوجته أضلته؛ داس تحت قدميه الوصية التي أعطاها الله له وارتكب تعدى ضد الكرامة التي منحها الله إليه" (٢: ٣ راجع سلسلة آباء الكنيسة مجلد ٣١ – ١٩٦٣ Baptismal Instuction ص ٤٤).

(لاحظ هنا أن التعدي وقع على كرامة أعطاها الله لآدم، و لم يقع هذا التعدي على الله حسب مقولة العصر الوسيط).

"ولكن لاحظوا كثرة عظمة الشفقة الإلهية؛ لأن الله لم يحكم عليه بعدم استحقاق الغفران، ذلك الذي أظهر عدم الشكر على عطايا لم يكسبها، وكان الله يستطيع أن يضعه خارج دائرة العناية الإلهية، ولكنه لم يفعل ذلك. هو لم يفعل ذلك فقط، بل كآب محب يحركه الحنان الطبيعي لطفلٍ مشاكسٍ، لم يحكم عليه حسب خطيته، وأيضاً لم يغفر له أيضاً، بل عاقبه باعتدال؛ لأن الطفل مثل قاربٍ لا يجب أن يتحطم على صخور شَرٍّ أعظم. هذا ما يفعله الله. حيث أن الانسان أظهر عدم طاعة عظمى، طرده الله من الفردوس. وحاصر الله ما يخص روح الانسان من أجل المستقبل؛ لكي لا يقفز بعيداً. وحكم عليه بأن يعمل ويشقى، وتكلم معه على النحو التالي موضحاً له أن الراحة وكثرة النعمة قد قادته إلى عصيانٍ عظيم وجعلتك

تنسى الوصايا .." (المرجع السابق ٤-٥).

وبعد أن يصف شقاء وتعب آدم في العمل، وخضوع آدم إلى غواية الشيطان الذي "جعله يتصور أنه معادِل لله، طرده بحكم الموت" (المرجع السابق ٧).فالمساواة لله[1] هي الغواية التي سقط فيها آدم لأنه صورة الله فقط (عظة ١٥ على إنجيل متى مجلد ٥٥: ٢٢٤ – العظة ١٨ على سفر التكوين مجلد ٥٣: ١٥١).

تماماً مثل القداس الإلهي، يقول ذهبي الفم:

"لكن الله في محبته لم يفشل في الاهتمام بالإنسانية ... بل أعلن للإنسان اهتمامه بالإنسان؛ لأنه بالموت، أعطى الإنسان الحياة الأبدية" (٢: ٧).

ولاحظ، أن الموت هنا جاء رحمةً كما قال التريتري؛ لأن الله لم يقبل أن يكون الشر الذي فينا أبدياً. ولذلك بعد ذلك مباشرةً يقول:

"الشيطان طرد الإنسان من الفردوس. الله قاده إلى السماء، فكانت الهبة أعظم مما فَقد" (٢: ٧ راجع ص ٤٦).

وخلال كل العظات لا يذكر بالمرة وراثة الخطية. وقبل أن يتشدق أحدهم، متسرعاً في إصدار الأحكام، بأن هذه هي مدرسة أنطاكية التي أفرزت الهراطقة، نقول إن الإسكندرية أفرزت أريوس أيضاً.

ذهبي الفم مفسِّر كل الأسفار يذكر الآتي في العظات:

١– كانت خطية قايين أعظم من خطية آدم، ورغم أنه قتل أخيه إلَّا أن الله قال إن كل من يقتل قايين سوف يُنتقم منه سبعة أضعاف، ولذلك وضع الله عليه علامةً لكي لا يقتله كل من يجده. (عظة ١٩ على سفر التكوين مجلد ٥٣: ١٦٢).

٢–أخنوخ استعاد حياة عدم الموت، أو بدقة أكثر *Immortality* التي فقدها آدم. (عظة ٢١ على سفر التكوين مجلد ٥٣: ١٨٠).

٣– وعندما يذكر التبرير، الموضوع الحائر في الكتابات الإنجيلية، والذي سقط

---

(١) حسب النص، هي رفض الصورة وطلب أن يكون مساوياً أو معادلاً لله، فهي ليست اشتهاء الألوهة، بل المساواة بالله؛ لأن الصورة الإلهية بدون شركة في الله تفقد وجودها وتصبح صورة للإنسان وحده، وهو ما حدث لآدم.

في أسر التصور القانوني، يقول في العظة ١١ على إنجيل متى (مجلد ٥٧: ١٩٧):"إنها عطية غفران الخطايا – رفع عقوبة الموت – وراثة الملكوت – وفيض حلول الروح القدس.

وفي عظة فريدة عن المجد الذي نناله أثناء التجارب، يقول ذهبي الفم:

"لقد كتب بولس قائمة بكل مشقات المسيحي، ولكن معها أيضاً قائمة المجد، لقد جعلنا الله ابراراً – قديسين – أبناء بالتبني – ورثة الملكوت، وورثة مع الوارث الابن الوحيد" (مجلد ٥١: ١٦٠).

وفي العظة الثانية، المجموعة الأولى التي نشرها *Montfaucon* (٢: ٦ مجلد ٤٩: ٢٢٦) يقول:

"لقد دُعيتم مؤمنين؛ لأنكم تؤمنون بالله، ولكم ثقة منه في التبرير، التقديس، نقاء النفس، التبني وملكوت السموات".

الأطفال بلا خطية:

يقول ذهبي الفم في العظة الثالثة فقرة ٦ – راجع ص ٥٧ من الترجمة الإنجليزية:

"مباركٌ الله، فهو وحده الصانع العجائب. ها أنتم ترون كثرة عطايا المعمودية. ورغم أن بعضكم يظن أن العطية الوحيدة التي تعطيها المعمودية هي مغفرة الخطايا، فقد حسبنا عطاياها عشرة، وبسبب هذه الكثرة نحن نعمِّد الأطفال، رغم أنهم بلا خطية لكي ينالوا عطايا التقديس والتبرير والتبني والميراث، ويصبحوا إخوةً وأعضاء جسد المسيح وأماكن سكنى الروح".

ومما سبق يظهر لنا غياب التحديد الأوغسطيني تماماً. لكن ذلك لا يكفي، لأننا أن شئنا الدقة فإن ذهبي الفم يؤكد:

"الخطية جاءت بالموت.

لكن موت الرب على الصليب، جاء بموت الخطية".

في العظة العاشرة يقول:

"اسمعوا، هذا ما يقوله القديس بولس، وكيف يصف المعمودية على أنها موت الخطية والصليب معاً. "ألستم تعلمون أنكم أنتم الذين اعتمدتم للمسيح قد اعتمدتم لموته" (رو ٦: ٣). وأيضاً إنساننا العتيق قد صُلب معه لكي يتم تدمير جسد الخطية" (رو ٦: ٦) ولكن لا تخافوا عندما تسمعون الكلمتين: "الموت" و"الصليب"، فقد أضاف القديس بولس أن الصليب هو موت الخطية.

كيف ترون أن المعمودية هي صليب؟ تعلَّموا هذا؛ لأن المسيح سمَّى المعمودية بالصليب؛ لأن اسم الصليب واسم المعمودية، أيهما يحلّ محل الآخر، ويتبادلان الاسم. هو (المسيح) يصف معموديته بالصليب؛ لأنه يقول، وأين يقول هذا "لديَّ معمودية يجب أن أعتمد بها" (لوقا ١٢: ٥٠)، وكيف أنه من الواضح أنه يتكلم عن الصليب؟ لأن ابني زبدي، أو بالحري أم ابني زبدي (متى ٢٠: ١٢) قالت له أن يأمر بأن "يجلس واحد عن يمينك والآخر عن يسارك في ملكوتك" (متى ٢٠: ٢١)، فكيف أجاب المسيح؟ هل تستطيعا أن تشربا من الكأس التي سوف أشربها، أو أن تعتمدوا بالمعمودية التي سوف أعتمد بها" (متى ٢٠: ٢٢ – مرقس ١٠: ٣٨). هنا ترون أنه قال إن الصليب معمودية، كيف هذا؟ هو يقول: الكأس التي سوف أشربها. ويقول عن آلامه إنها الكأس. وعن هذا قال للآب "إذا كان من الممكن فلتعبر عني هذه الكأس". هل ترون كيف قال إن الصليب هو معموديته وإن آلامه هي كأس" (١٠: ٨-٩ راجع ص ١٥١).

في العظة العاشرة على رسالة رمية (مجلد ٦٠: ٤٨٠) يشرح ذهبي الفم:

"ماذا تعني (الكلمات) بأننا اعتمدنا لموته؟ كما أنه اعتمد لموته هكذا نحن أيضاً لان المعمودية هي صليب. المعمودية لنا هي الصليب والدفن اللذان صارا للمسيح ولكن هذا لا يحدث لنا كما حدث للمسيح، فقد مات

ودفن جسده، ونحن أيضاً نموت وندفن للخطية. وهكذا لم يقل بولس إننا اتحدنا به في موته، ولكن في شبه موته (رو ٦: ٥). موته وموتنا كلاهما موت، ولكنهما مختلفان. موت المسيح هو موت جسده وموتنا نحن هو موت الخطية".

وإلى نيافة الأنبا بيشوي بالذات نترجم هذا النص؛ لأنه عن "الصك" الـــذي أشار اليه الرسول بولس في (كولوسي ٢: ٢١٤)؛ لأن الرب لم يدفع، ورغم وضـــوح كلمات الرسول بولس، إلَّا أن شرح القديس يوحنا ذهبي الفم قـــد يجعـــل كلمـــات الرسول تستقر في وعينا:

"نحن لم نعد مديونين إلى الصك القديم. المسيح جاء مرة واحدة ووجد صك ديون أجدادنا، ونحن أضفنا إليه خطايانا، فزاد. في هذا الصك كُتبت الخطية والموت وحكم الشريعة (الناموس). المسيح أخذ الكلَّ، وغفر الكل. والقديس بولس يصرخ عالياً "صك خطايانا الذي كان علينا فقد أخذه كله وسمَّره في الصليب (كولوسي ١٤) هو (بولس) لم يقل إنه محاه، ولم يقل إنه حذفه أو شطبه، بل "سمَّره في الصليب"؛ لكي لا يبقى له أثر. ولهذا هو لم يمحُه، بل مزَّقه قطعاً أو إرباً إرباً. مسامير الصليب مزَّقت الصك وأبادته إبادةً كاملة لكي لا يبقى له أي فائدة في المستقبل" (عظة ٣: للموعوظين ٢١ راجع ص ٦٣، وراجع نفس الشرح في العظة ٦ على كولوسي (مجلد ٦٣: ٣٤٠).

وفي عظة عن وضع الصليب على المقابر يقول:

"كما أن ملكاً شريفاً غلب عدواً عظيماً فعلَّق على راية النصر الصدر والدرع وأسلحة الطاغية وكل قواته التي غلبها، هكذا فعل المسيح الذي كسب حربه مع الشيطان، وعلَّق كل اسلحته الموت ولعناته عالياً على الصليب في لحظة النصر لكي يراها الكل، القوات العليا في السموات، والبشر الذين على الأرض، والشياطين الشريرة التي دُحرت" (مجلد ٤٩: ٣٩٨).

وبعد، لماذا نأخذ عن الغرب تعليماً يحاول الغرب أن يتملص منه، ونحاول نحن أن نزرعه عن جهلٍ؛ لأن صمت الشعب، وصمت الذين لا يعرفون التسليم الكنسي، ليس من التقوى في شيء؛ لأن الإيمان وديعة يجب أن نحرص عليها؛ لأنها ملك الـــرب نفسه، وتراثنا السماوي الذي يجب أن نحرص عليه لكي نسلمه "لنا ولعبيدك الآتـــين بعدنا إلى الأبد" كما نصلي في أوشية الاجتماعات.

الباب الثالث

لاهوت الكنيسة الغربية
أغسطينوس، وما بعد أغسطينوس

الفصل الأول

القديس أغسطينوس

التاريخ واللاهوت

ولد القديس أغسطينوس سنة ٣٥٤ في *Tagaste* الآن سوق الرأس. وهو يُعتبر من كبار آباء الكنيسة الغربية. دخل المؤلفات القبطية العربية في القرن العشرين عن طريق نقل ما نشره الآباء الكاثوليك في الإرساليات التي كانت ولا تزال تملأ الشرق الأوسط. هو أيضاً مثل العلَّامة أوريجينوس، أثار الكثير من العواصف الفكرية لا سيما في القرون ١٩-٢١ إذ لا زالت مراكز الأبحاث في جامعات الغرب تنشر العديد من رسائل وأبحاث متصلة بحياته ومؤلفاته التي تربو على المئة، وهي كتب ومقالات وعظات نُشرت أخيراً في ١١ مجلد، والرسائل في ٤ مجلدات. ولعل عمل الأب *Edmund Hill* وجهد *New City Press* هو الذي جعل وصول ترجمة انجليزية جيدة جداً لأيدي القراء، هو ما شجع على فتح ملف الفكر اللاهوتي برُمَّته في حقبة لم تُدرس عندنا في مصر في معاهد اللاهوت الثلاثة: الإكليريكية — المعادي — الإنجيلية.

ولعل أحد أسباب بقاء أوغسطينوس حيَّاً في ذاكرة الكنيسة الكاثوليكية هو الجماعة الرهبانية التي كُوِّنت باسمه وانتشرت في كل أرجاء العالم الغربي.

تاريخياً كان الشاب أوغسطينوس ينتمي إلى تلاميذ ماني *Mani* حتى أنقذه أمبروسيوس أسقف ميلان، وقاده إلى المسيحية. لدى عدد كبير من المؤرخين هاجس يراه هؤلاء في كتابين من كتب أوغسطينوس: الأول باسم العقيدة الصحيحة *Devera Religione* نشر عام ٣٩٠، والثاني عن الزواج الصالح *Debono Conjugali* ورغم وجود إيحاء عن بركة أو سعادة الزواج، إلَّا أن الكتابين فيهما إيحاء بأن أوغسطينوس

لا زال يتردد بين الأرثوذكسية وهرطقة ماني.

في الكتاب الأول العقيدة الصحيحة يقول:

"يوجد إلهٌ غيرُ متغيِّرٍ، وكل ما يصدر عنه *Proceed From* هي في ذاتها قابلة للتغيير ... والتغيير الأول حدث في النفس العاقلة التي تشتاق إليه النفس، ويمنعه الحق المطلق (الكامن في داخل النفس) وهكذا طُرد الإنسان من الفردوس إلى العالم المؤقت، وعَبَرَ من الأبدية إلى الزمان، ومن الغنى إلى الفقر، ومن الثبات إلى الضعف ... الشجرة التي ذكرها سفر (التكوين) التي غُرست في وسط الجنة لم تكن شرًّا، ولكن تعدي وصية الله هو حقاً الشر. والتعدي يستدعي عقوبة. ومن هذه الشجرة التي رغم منع الأكل منها امتزجت بها (المعرفة)، فصارت مصدر معرفة الخير والشر؛ لأن النفس سُجنت بخطيتها، والفداء هو الذي يعلِّم الفرق بين الوصية التي رَفَضَت (النفسُ) إطاعتها والخطية التي "اِرتَكَبَت" (مجلد ٣٤: ١٣٨-١٣٩).

ورغم أن اوغسطينوس كتب رداً قوياً ضد *Manicheans* المانيين إلَّا أنه قال في عبارة لا تختلف حتى في صياغتها عن تعليم ماني "بأن الجسد هو سُمُّ النفس وحِملٌ ثقيل بسبب الخطية القديمة". واستخدام التعبير اللاتيني "*Anti QuumPeccatum*- ليس هو حتماً" في سنة ٣٩١ التي كتب فيها هذا الكتاب *De Moribus Ecclesiae et Manichaeorum* (مجلد ٣٢: ١٣٢٨).

ولاحظ عبارة "صدور المخلوقات من الله"، وعبارة "الجسد هو سُمُّ النفس"، وكلتا العبارتين ليس فيهما الوضوح الكافي، ولكنهما تنمان عن أن أوغسطينوس لا زال تحت إيحاء مصطلحات المانوية.

لعل ما يؤيد هذا أيضاً هو شرحه لسفر التكوين في عام ٣٩٥ حينما رأى أن تكاثر الجنس البشري بالعلاقات الزوجية هو عمل روحي بحت (مجلد ٣٤: ١٨٦-١٨٧). ولكنه عاد وتردد في مقالة أو كتاب الزواج في عام ٤٠٠ عندما يسأل كيف يمكن للرجل والمرأة أن يكون لهما نسل بدون علاقة جسدية؟ هو متردد لأنه يسأل لماذا لا؟ ولكن الإجابة غريبة؛ لأن النحل يتكاثر دون علاقة جسدية. فهل يمكن فهم

هذه العلاقة على أنها روحية بحتة؟ لأنها علاقة فرح وسعادة بين الرجل والمرأة؟ ألم يكن كلاهما سعيدين لأنهما كانا خالدين *Immortal* دون حاجة إلى الإنجاب، أم أن هناك أسلوب آخر لتكاثر الجنس البشري؟ وهل أعطى الله الإنسان جسداً مادياً قادراً على الانجاب؟ هذا ممكن بالقوة الإلهية.

كيف يكون الجسد خالداً وينجب؟ و لم يختَر أوغسطينوس أياً من هذه الافتراضات، و لم يقدم إجابة على أيٍّ منها، ولكن هذه الأسئلة وحدها تكشف الخلفية التي كان في زمان سابق ينتمي إليها (مجلد ٤٠: ٣٧٣-٣٧٥).

في كتابه "التفسير الحرفي لسفر التكوين" يقول:

> "أرغب في أن أتكلم عن الفردوس بالقدر الذي يمنحني الله إياه. خُلِق الإنسان من طين الأرض بجسد آدمي، ووُضِعَ في فردوس حقيقي (مادي) ورغم أن الرسول (بولس) يقول إن آدم يشير إلى آخر، فهو النموذج أو المثال لمن سيأتي (المسيح يسوع) إلَّا أن آدم كان إنساناً بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة، وعاش فترة زمنية محدودة. ومنه وُلِدت عدة أجيال، ومات مثل كل البشر، رغم أنه اختلف عن كل البشر؛ لأنه كان بلا أبوين إلَّا أنه أُخِذَ من الأرض. والفردوس هو مكان حقيقي عاش فيه الإنسان الأرضي" (٨: ١ مجلد ٣٤: ٣٧١).

وهكذا يبدو أنه عندما يعود إلى نصوص الكتاب المقدس لا يخرج على النص. ونفس الأفكار تراها في مدينة الله (١٤: ١).

وعندما يصف خلق حواء من ضلع آدم، لا يجد صعوبةً في المقارنة بين حواء، والحبل وولادة الرب يسوع نفسه من أم بلا أب (المرجع السابق عامود ٤٠٢).

عندما نشر الأستاذ *F. C. Burkitt* أول دراسة جادة عن تعليم المانيين[١] بات من الواضح أن أحد دعائم التعليم هو أبدية الشر واستحالة تدمير الشر؛ لأن الشر من صنع إلهٍ شرير. عاش أوغسطينوس داخل هذه الجماعة ٩ سنوات وتركها بعد ذلك

---

(١) نُشرت عام ١٩٥٤ تحت عنوان: The Religion of the Manichees

(الاعترافات ٥: ٣-٦) ويبدو أنه تقابل مع القديس أمبروسيوس في الفترة ما بين (٣٨٣-٣٨٦).

كانت باكورة تحديد وراثة الخطية وراثة جسدية في كتاب أجاب فيه أوغسطينوس على الأسئلة الصعبة في الكتاب المقدس، وكتب الكتاب إلى خليفة أمبروسيوس *Simplican* في عام ٣٩٧. في هذا الكتاب بالذات، وفي الفصل العاشر يقول أوغسطينوس إن: "الخطية صارت لها جذر في الطبيعة الإنسانية، وأنها تنتقل بالوراثة". ويعتبر علماء الآباء أن هذا التحديد سابق على الصراع مع بيلاجيوس، هذا إذا كان الكتاب قد كُتب فعلاً في ٣٩٧.

ملاحظة ضرورية:

يعتبر هذا أول تصريح كُتب بهذا الشكل في الأدب المسيحي كله؛ لأن العبارة السابقة سوف تؤدِّي مع تطور فكر أوغسطينوس إلى تعبير آخر، وهو الخطية الأصلية *Originale Peccatum* وكان أوغسطينوس هو أول من قال إن خطية آدم في الفردوس هي التي استوجبت العقاب، بينما رأي غريغوريوس التريتري أن حكم الموت كان رحمةً بآدم والجنس البشري، لكي لا يبقى الشر إلى الأبد.

ومن الجدير بالذكر أن أغسطينوس قدَّم أيضاً تعبيراً آخر وهو *Concupiscence* ويعني الميل للخطية بقوة عاطفية ورثناها من آدم.

البدعة البيلاجية:

قبل البدعة البيلاجية لم يذكر أوغسطينوس الخطية الأصلية، وعلى سبيل المثال التفسير الحرفي لسفر التكوين (كتاب ٣ فصل ٢٠). ولكن بعد البدعة البيلاجية اشتعلت عندما وصل *Celestius* وهو أحد المدافعين عن بلاجيوس إلى شمال إفريقيا من روما وقال إن الأطفال يولدون مثل آدم قبل السقوط في حالة البراءة – كما ذكر أوغسطينوس نفسه (مجلد ٤٤: ٣٣٤).

فعُقد مجمع في قرطاجنة في ٤١١م وأُدين رأيه. ولكن القنصل الروماني

مارسيلينوس طلب من أوغسطينوس أن يكتب مقالاً عن غفران الخطايا؛ لأن أقطاب البدعة البيلاجية كانوا يقولون إن الخطية تنتقل بالمعاشرة والتشبُّه بالآخرين (مقالة أوغسطينوس عن الخطية والغفران (مجلد ٤٤: ١٤٤). بل في دهاء ميَّز البيلاجيون بين الحياة الأبدية وملكوت السموات (المرجع السابق عامود ١٢٨) وألقى أوغسطينوس عظتين (عظة ٢٩٣ – ٢٩٤)في قرطاجنة في ذكرى يوحنا المعمدان في عام ٤١٣م.

في العظة ٢٩٣ يقول أوغسطينوس بعد أن أكد على أن المسيح هو الوسيط الوحيد:

> "بهذه الوساطة، الجنس البشري، أو كتلة الانسانية التي بواسطة آدم اغتربت عن الله قد صُولحت معه؛ لأنه بآدم دخلت الخطية إلى العالم وبالخطية الموت وهكذا سرى الموت إلى جميع الناس إذ أخطأ الجميع" (رو ٥: ١٢).

ويتابع كلامه:

> "ماذا بعد؟ هل يحتاج الأطفال إلى مخلِّص؟ بكل يقين، والدليل هو إسراع أم كل طفل إلى الكنيسة لكي تعمِّده. والدليل أن أمه وهي الكنيسة تقبل الطفل لكي تغسله ويتطهر لكي يصبح حراً أو أنها ترفض أن تقبله وتطلب له الرثاء. مَن الذي يستطيع أن يقف ضد أُمٍّ كهذه الأم (الكنيسة). وأخيراً فإن الطفل نفسه يبرهن على شقائه بالبكاء لأنه لا يبدأ حياته بالضحك، بل بالبكاء والعويل؛ لأنه كما لو كان يعترف ببؤسه ... هل لدينا معمودية خاصة بالأطفال حيث لا ذكر لغفران الخطايا؟ وحقاً لو استطاع الطفل أن يتكلم عن نفسه لقال ضد الأصوات التي تعارض (البيلاجيين) لأنه سيصرخ بصوتٍ عال: "أعطوني المسيح، أنا مت في آدم، أعطوني حياة المسيح الذي أمام عينيه "لا يوجد واحد بريء (طاهر) ولا حتى الطفل، لو عاش يوماً واحداً على الأرض (أيوب ١٤: ٤ س)"(مجلد ٣: ٨ من عظات أوغسطينوس ص ١٥٥-١٥٦).

وفي العظة ٢٩٤ (المرجع السابق ص ١٨٠-١٨١) يذكر كيف يقبل البيلاجيون معمودية الأطفال لدخول ملكوت السموات، وهنا يسأل أوغسطينوس

البيلاجيين عن سبب المعمودية: "إذا كان الطفل عندما يعتمد، وبسبب براءة الطفل، لا توجد خطية بالمرة. ليس خطية شخصية **ولا خطية أصلية** لا منه هو ولا من آدم ...". وطبعاً، سؤال أغسطينوس الاعتراضي يوجه النظر إلى أنه إذا كانت معمودية الأطفال حسب البدعة البيلاجية هي لنوال ميراث الملكوت، إذن، فقد ظلت وراثة خطية آدم هي محور البحث.

وبسبب نقد أوغسطينوس، وتشجيع أوريليوس رئيس أساقفة قرطاجنة عُقِدَ المجمع السابق ذكره، وحضره ٢١٤ أسقف من شمال إفريقيا وأسبانيا وأرسلت القوانين المعروفة باسم *Tractoria* إلى روما، إلى زوسيما بابا روما، ولكن ١٨ أسقفاً من الحاضرين رفضوا قرارات المجمع،كان من ضمن هؤلاء الأسقف يوليانوس أسقف *Eclanum* وهو من اهتم بالأسقف أوغسطينوس في آخر أيامه، وهو أول من اتهم أوغسطينوس بأنه لم يتحرر من هرطقة المانيين (راجع بحث Hedd – Amonn في قاموس اللاهوت الكاثوليكي مجلد ١٢ عامود ٧٠٢-٧٠٦)، وهرب يوليانوس إلى فلسطين وجاء إلى مصر واختفى من التاريخ.

النصوص الكتابية التي اعتمد عليها أوغسطينوس حسب الترجمة اللاتينية:

١– اعتمد اوغسطينوس على (يوحنا ٣: ٥) عن أهمية المعمودية لدخول ملكوت السموات، وأضاف إلى (يوحنا ٣: ٢٥) نصين من العهد القديم: الأول من سفر أيوب (١٤: ٤) والثاني من المزامير (٥١: ٥)، وأضاف نص (أفسس ٢: ٣ "كنا بالطبيعة أبناء الغضب"). وهذه النصوص –عند أوغسطينوس– تؤكد حالة الخطية عند كل الشعوب والبشر قبل المعمودية، ولكن النص الأكثر شهرة هو (رو ٥: ١٢-١٩).

٢– كيف قراء أوغسطينوس هذا النص (رو ٥: ١٢ – ١٩) في الترجمة اللاتينية: "بإنسان واحد دخلت الخطية إلى العالم وبالخطية الموت وهكذا سرى الموت إلى جميع الناس" (رو ٥: ١٢)؟

حسب الترجمة اللاتينية رأى أوغسطينوس أن تعبير "سَرَى أو انتقل – *Pertransilt* هو تعبير خاص بالخطية *Peccatum* وأن *in quo cohich* الذي ورد في

آخر نص رو ٥: ١٢ كان يجب أن يكون *in cohich in quo* استناداً إلى أن كلمة "الموت" في اليونانية مذكَّر، وأن كلمة "خطية" مؤنث، ولكنه استنتج أن النص في رو ٥: ١٢ لا يذكر خطايا البشر الشخصية، بل خطية الأب الأول آدم. ولم ينتبه أغسطينوس إلى نص رو ٥: ١٩: بمعصية واحد جُعِلَ الكثيرون خطاة وبطاعة الواحد جُعِلَ الكثيرون أبراراً؛ لأن نص رو ٥: ١٢-١٩ هو عن آدم الأول وعن آدم الثاني يسوع وليس عن خطية آدم الأصلية، وهو ما يؤكده بولس نفسه في (١كو ١٥: ٢٢)"كما في آدم يموت الجميع، هكذا في المسيح سيُحيا الجميع".

٣- لم يكن أوغسطينوس يعرف اليونانية، ولذلك لم يقرأ كتابات الآباء الذين كتبوا باليونانية، بل حتى عندما جمع الأسقف المعارض يوليانوس أسقف *Eclanum* بعض نصوص من القديس إيريناوس (وهي ربما كانت معروفة في ترجمة لاتينية، إلَّا أن ما كان معروفاً من الكتابات اليونانية كان ضئيلاً)، لم يرد فيها أن إيريناوس ذكر الخطية الأصلية -وذلك كما سبق وأشرنا- بل تكلم عن براءة آدم وحواء كأطفال، وعن سيادة الموت.

لكن الكنيسة الغربية لم تقبل التعليم بالخطية الأصلية حتى انعقاد مجمع أورانج *Orange* في ٥٢٩ وثُبِّت القرار في مجمع ترنت ١٥٤٥جلسة ٦ قانون ٤.

الفصل الثاني

آباء الكنيسة الغربية بعد أغسطينوس

مقدمة

– كان أنسلم رئيس اساقفة كـــانتربري، ودون ســـكوتس *Scotus* وولـــيم *Occuncs* وجورج من *Rimini* يرون أن الخطية الأصلية هي غياب الـــبر والميـــل إلى الخطية.

– الكسندر من *Hales* وتوما الأكويني يريان أن غياب الـــبر مـــن الطبيعـــة الانسانية هو الخطية الأصلية، وأن الميل الطبيعي *Concupiscence* هو الخطية الأصلية (توما الأكويني– الخلاصة اللاهوتية ١: ١١ Q ١٠٨٢)، وبذلك تصبح الخطية الأصلية هي وراثة الميل للخطية وليس ذنب آدم.

وسوف نعرض لهذه الآراء بشيءٍ من التفصيل:

أنسلم رئيس أساقفة كانتربري

له عدة مؤلفات هامة تركت بصماتها على الفكر الغربي كله:

١– كتاب عن سبب سقوط الشيطان *De Casu Diaoli* ذكر فيه أن الشـــيطان أراد بالإرادة أن يكون مثل الله، وأن يرفض نعمة الله لكي يكون مثله (٢: ٣ – مجلد ١٢٨ الآباء اللاتين ٣٣٣).

٢– كتاب عن طبيعة الله وصفاته وقدراته *Monologion*.

٣– والكتاب الأخير هو لماذا تجسد الله *Cur Deus Homo*.

يعرف كل الذين درسوا اللاهوت الغربي بشقيه الكاثوليكي – الإصلاحي *Reformed* أن كل الذين كتبوا حتى مجيء توما الأكويني كانوا تلاميذ للقديس أوغسطينوس بما فيهم مارتن لوثر في القرن الـ ١٦.

ماذا أضاف أنسلم إلى فكر أوغسطينوس؟

١– مثل أوغسطينوس اعتبر أن الخطية هي تعدي الشريعة، وهي لابد أن تقابَل بعقاب، ولكن أنسلم أضاف إلى خطية آدم أن تعدي شريعة الله هو "إهانة لكرامة الله"، وأن آدم بالسقوط صار مديناً *debtor* لله (لماذا تجسد الله ١: ٢٢ مجلد ٥٨: ٣٩٥). ومع آدم صار الجنس البشري كله يحمل ذات "الدين".

٢– آدم ليس مجرد فرد. وهنا تمكَّن أنسلم من أن يعمل بشكل خاص على التمييز بين الطبيعة والشخص، واعتبر آدم ليس مجرد شخص، بل طبيعة، وأنه عندما أخطأ، أخطأت الطبيعة الانسانية كلها حتى الذين لم يكن لهم وجود كأشخاص أخطأوا؛ لأن الطبيعة الانسانية كانت كلها في آدم *Sic erat in Adam totamaturautninile de illaextratillumesset.* (المرجع السابق عامود ٤٤٤).

وهكذا بدأت تسود فكرة فساد الطبيعة، وخضوع الشخص للطبيعة بعد ذلك في الفكر الأوروبي المسيحي وغير المسيحي.

ليست المشكلة هي رفض أو قبول التمييز بين الطبيعة والشخص، وإنما المشكلة هي أن يولد إنسانٌ ما في أي مكان أو زمان وينشأ على أنه فاقد الحرية، وأنه مستعبَد للطبيعة. هذا لا علاقة له بالإنسان القديم أو العتيق عند الرسول بولس؛ لأن الإنسان العتيق أو القديم هو من صنع الإرادة وليس وراثة طبيعة، فهو حسب عبارات الرسول نفسه عن الأمم الذين لهم ذهن، أو عقل، أو إدراك باطل. هؤلاء هم:

"مظلمو الفكر.

غرباء عن حياة الله بسبب الجهل الذي فيهم.

بسبب غلاظة قلوبهم" (أف ٤: ١٨).

ولذلك يصف الرسول الانسان القديم بـ "الفاسد بحسب شهوات الغرور".

(أفسس ٤: ١٨-٢٢).

كيف فهم أنسلم الخطية الأصلية؟

١– هي فقدان الإرادة الصالحة التي تعمل للخير والصلاح.

٢– حتى الأطفال، وهم من طبيعة آدم، ورثوا الخطية الأصلية؛ لأن الجنس البشري جاء من مصدر واحد هو حسب أوغسطينوس كتلة خطاة بلا تقوى *Mass of Sinners*

Massa Peccatorum et impioram (Ad Simplicianum 1:1;10).

٣– في مقالة أوغسطينوس عن الزواج والشهوة *Concupiscence* يقول أوغسطينوس:

> "الذي يولد من شهوة الجسد هو مولود فعلاً من العالم، وليس من الله، ويولد من الله من جديد في الماء والروح. وذنب *reatus* شهوته، الميلاد الثاني وحده هو الذي يمحوه" (١: ٢١-١٩).

وقد أعاد أغسطينوس تأكيده على **الذنب** في نفس المقالة وهو يشرح (رو ٥: ١٢)، فيقول:

> "لأننا في آدم نموت بالفساد الخفي الكامن في طبيعته وفي شهوته التي فيه هو وفي كل نسله" (مجلد ٤٤: ١١٥).

ما هي الشهوة؟

في اللغة اللاتينية *Concupiscentia* هي ترجمة أقرب إلى الكلمة اليونانية ἐπιθυμία ولكن في العهد الجديد كلمة "شهوة" لها معنى جيد (فيلبي ١: ٢٣)، وهي الرغبة الصالحة القوية (لوقا ٢٢: ١٥ —١ تسا ٢: ١٧). وهي أيضاً تعني الشهوات الشبابية التي ليس لها هدف (٢تيمو ٢: ٢٢ — ٤: ٣).والشهوة التي تسود وتغلب الإرادة (١بط ١: ١٤)، وهي شهوات جسدانية كما في (رو ١: ٢٤) أفسس ٢: ٣ ١يوحنا ٢: ١٦ — ٢ بط ٢: ١٨).

لكن يبدو أن الشهوة بشكلٍ عام عند أوغسطينوس هي من بقايا المانوية؛ لأن

شهوة الزواج والجنس كانت تُعدُّ أعظم شرور وقع فيها الإنسان عند ماني حسب دراسة *Johnnes Van Oort* ولعل أغرب ما قاله أوغسطينوس عن الموسيقى: "إنها تدفع من يسمعها إلى قبول صرخة الشهوة الكامنة في الجسد والتي يحركها الشر نفسه (مقال عن الموسيقى٦: ٣ – ١٣ – ١٤).

وفي مقالة أخرى بعنوان ٨٣ سؤال، حاول أوغسطينوس أن يشرح عبارة الرسول بولس أن الرب جاء في شبه جسد الخطية (رو ٨: ٣)، فقال:

> "إن آدم كانت له طبيعة خاطئة بسبب الخطية ومعها الموت، لكن يسوع "لم يكن خاطئاً لأنه لم يولد من شهوة جسدانية" (السؤال ٦٦: ٦ راجع الترجمة الإنجليزية في آباء الكنيسة – مجلد ٧٠ – الجامعة الكاثوليكية – ١٩٨٢ ص١٩)[1].

وقد عجز أوغسطينوس، كما يعجز غيره، عن شرح عبارة (عب ٥:٧) عن أن لاوي كان في صلب إبراهيم؛ لأن يسوع ابن داود ابن إبراهيم كان أيضاً في صلب إبراهيم مثل لاوي، ولم يقدِّم رداً مقنعاً؛ وذلك لأن العبارة هي عبارة عبرانية تعني تضامن الجنس البشري كله في وحدة الحياة، وليس في سلسلة إنجاب محكومة بقانون الإنجاب، أي الوراثة. وقال أوغسطينوس إن يسوع كان في "صلب" *Lions* الآب، وهو هنا يكاد ينكر إنسانية يسوع (التفسير الحرفي لسفر التكوين مجلد ٣٤: ٤٢٥).

هذه هي الخلفية التي تتلمذ عليها أنسلم وهو يحاول البحث في أصل النفس الإنسانية التي يخلقها الله بعمل مباشر. وهو يتبنى هذا الرأي في مقالته عن ميلاد الرب من العذراء. فالجسد يأتي من البذرة *Seed* التي تعطى في العلاقة الجسدانية. والجسد له طبيعة خصبة، ولكن الإنجاب ليس شراً، بل لأن الجسد خضع للخطية وتغير بالخطية (١٠، ١٦).

الخطية عند أنسلم لها عدة جوانب. في الكتاب السابق يقول في الفقرة ٢٣: "خطية آدم جعلت طبيعة الإنسان خاطئة"، وهو هنا يقصد فقدان الحياة الصحيحة

([1])"Augustine and Mani on Concapiscention Sexualis" 1987, 137-52.

ودخول الفوضى المعادية لخلق الإنسان والمضادة لإرادة الله حتى أن آدم أفسد ما هو عادل أو صحيح *In Adam iustitiae desertion*" (فقرة ٢٧).

و"**الذنب**" هو نفس تعبير أوغسطينوس *reatus* الذي قُنِّنَ في قوانين مجمع ترانت باسم "الذنب الأصلي *Original Guilt*" في الفقرة الخاصة بالخطية الأصلية (راجع Enchiridion Symbolorum, 1965, n5.)، لكن الجديد هو غياب النعمة، فهو يقول: "الأسلوب الوحيد الذي أفهم به هذه الخطية الأصلية هو فقدان الفضيلة بسبب العصيان، أي عصيان آدم والذي جعلنا جميعاً أبناء الغضب".

هكذا مهَّد أنسلم لتطور هام في اللاهوت الكاثوليكي تزعمه كل من *K. Raphner* و *G. Griez* وهو التطور القائل بأن ولادة الإنسان بالخطية هو غياب نعمة الله التي وهبت أصلاً عند خلق الإنسان[1].

توما الأكويني:

يُسمى المُعلِّم الملائكي *Angelic Doctor* وقد سار على نفس درب أوغسطينوس في الاعتقاد بأن الانسان الأول خُلِقَ "خالداً"، وهو مبدأ لم يعرفه آباء الكنيسة الشرقية، بل قالوا إن آدم كان مدعواً للخلود، ولكنه اختار الموت. وخلود الإنسان الأول آدم يستدعى عقوبة من الله، وهي فكرة سائدة عند أوغسطينوس وقَبلَها توما الأكويني في الخلاصة اللاهوتية (Ia;9.97.a;1). وبالعصيان دخلت الشهوة *Concupiscence* التي خلقت الاضطراب والفوضى في طبيعة الإنسان، وهي ثمرة الخطية الأصلية (Ia;IIae.9.91a6). ومثل أوغسطينوس نقلت الولادة بالزواج الخطية للكل (Ia;IIae.9.81a.i). واعتمد توما مثل أوغسطينوس على معمودية الأطفال، والمعمودية بشكل عام لتأكيد وراثة الخطية. لكن توما الأكويني يؤكد اضطراب الطبيعة في النفس الإنسانية وتفكك الإرادة وانحلال القوى العقلية والروحية في الإنسان، وله عبارة قاطعة صارمة "تُرك الإنسان لطبيعته". (Ia;IIae.9.86.a.6).

---

(1) K. Rahner, The Sin of Adam “Theological Investigation” vol. 11, 1974, p257-258.G. Griez, Fullfilment in Christ, 1977, p170-171.

ملاحظات ختامية:

١– لم نتوسع في تقديم كل أفكار توما الأكويني؛ لسبب واحد، وهو أنه بالتحديد في موضوع الخطية الأصلية لم يقدِّم ما هو جديد.

٢– لكن تلك النظرة القاتمة التي تصف الطبيعة وتجعل للطبيعة سيادة على الشخص تجعل الإنسان يميل إلى إسقاط الفشل والشر على طبيعته التي لا دخل له فيها. حقاً جاءت العلوم الحديثة، وبالذات ما يحيط بالوراثة والتغير الذي يحدث في *Genes* والذي ينقله *DNA* ولكن هذا بسبب الأمراض وليس بسبب السلوك الإنساني.

٣– عندما نعلِّق خطايانا على طبيعة موروثة من آدم خُلِقت منذ ٥٥٠٠ سنة حسب حساب بعض علماء العهد القديم، فإننا ننفي بشكل مباشرة مسئولية الإنسان في صنع كيانه الإنساني بأفعاله، وننسب ذلك إلى آخر لا نعرفه و لم نراه، بل عاش في حقبة سحيقة تمتد إلى ٥٥٠٠ سنة، وبذلك تفقد الخطية ارتباطها بالإنسان وبالشخص، وتجعل تجديد الطبيعة مسألة مجردة عقلية؛ لأن الطبيعة هي فكرة عقلية، ولكن الشخص هو وجودٌ حي. طبعاً لا وجود لطبيعة بدون شخص؛ لأن الشخص هو الوجود الحقيقي للطبيعة، وهذا يعني أن حرية اختيار الشخص هي التي تحدد مسيرة وتحول طبيعته.

٤– الإنسان يصنع كيانه، وتسلط الشهوات على الإرادة يجد في الجسد الآلة *Tool* وتحوُّل الجسد إلى آلة لخدمة شهوات الإنسان، تجعل للجسد صورة أو عدة صور عقلية تستقر في الذاكرة، وتحوِّل الجسد إلى شكل عقلي أو صورة عقلية يلجأ إليها الإنسان في حالات سيادة الشهوات. وعندما تستخرج الإرادة من الذاكرة صورةً أو صوراً لطريقة تحول الجسد لإشباع الرغبات والشهوات التي هي في مجملها ليست عقليةً محضة؛ لأن الإنسان ليس له كيان عقلي بلا جسد، بل له كيان جسداني له وجود في الوعي، وهو الوجود الذي صوَّره الإنسان بعدة صور عقلية يعبِّر عنها في كلمات المدح والغزل والذم والشتائم التي تنال الجسد بشكل خاص، أقول عندما نستخرج هذه الصور في لحظات الخير أو الشر، فإن ما نراه في الواقع ليس سيادة طبيعة

على شخص، بل تحول الطبيعة بشكل شخصي جسداني في عدة صور عقلية – جسدانية تدفع الإنسان إلى إعادة اختبارات قديمة يظن أنها جسدانية، ولكنها عقلية – جسدانية أو *Psychosomatic* ففي حالات الغضب -على سبيل المثال- يصبح أسلوب الهجوم والاعتداء هو صورة عقلية جسدانية تدفع الإنسان إلى الظن بأن في جسده طاقة غير محدودة -هذا غير صحيح- ولذلك يستخدم الجسد من أجل أداء النزعة العقلية –النفسية. وهذا يعيدنا إلى أصل الفكرة، وهي رفض سيادة الطبيعة؛ لأن تحرر الإنسان في المسيح هو تجديد الكيان الإنساني وسيادة النعمة، أي الحياة الجديدة على الشخص.

٥– عموماً، لا تزال محاولات تفسير الخطية الأصلية على أنها غياب النعمة، هو اقترابٌ من تعليم الشرق، وهو عدم سكنى الروح القدس في الانسان، ويبقى موضوع سيادة الموت كقوة دافعة خالقة للخطية بقصد الدفاع عن النفس، وهو ما سوف ندرسه بعد ذلك.

الباب الرابع

آباء الكنيسة الشرقية

القديس كيرلس السكندري

ختم الآباء

فصلٌ وحيد

القديس كيرلس الكبير وتدبير الخلاص

يُسمى عامود الدين في كتابات الذين جاءوا بعده، لا سيما في القرنين السادس والسابع بـ"ختم الآباء". ويظل القديس كيرلس الكبير حقاً هو حلقة الوصل الحقيقي بين كنيسة مصر والكنائس الأرثوذكسية البيزنطية لأنه مرجعية مقبولة لدى الطرفين: الخلقيدوني وغير الخلقيدوني.

كيف شرح القديس كيرلس نص رومية ٥: ١٢

"كما ذكرت، دخل الموت بواسطة الخطية في الانسان الأول الذي خُلق كبداية للجنس البشري. وبعد ذلك انتشر الموت منه للكل أي لكل الجنس البشري ...

بسبب انتشار الموت، صار عقل الإنسان متخصصاً في الشر منذ الحداثة (الشباب). نحن نعيش حياة غير عقلانية ضد الله الكلي القداسة. وساد الموت، بل صار يفترس الكل كما قال النبي: "اتسعت الهاوية وفتحت فمها بدون قياس" (اشعياء ٥: ١٤ س)، ولأننا متمثلين بعصيان آدم، ولأن الكل أخطأوا، فكلنا سقط تحت حكم الدينونة مثل آدم" (مجلد ٧٤: ٧٨٤ BC).

وحسب الأصل اليوناني لرومية ٥: ١٢ εφώ بالذي جميعهم خطئوا فيه، أي الموت، وهو ما شرحه القديس كيرلس في العبارة السابقة "متمثلين بعصيان آدم لأن الكل أخطأوا καθ όπάντες ήμαρτον".

"الكل أخطأوا"، وقوة التعبير في التشبه بعصيان أو خطية آدم. والقراءة الدقيقة تؤكد انتشار الموت في كل الجنس البشري.

الموت والخطية هما معاً حلقة واحدة. بدأت بالخطية والموت في آدم، وصارت الموت والخطية في الجنس البشري. في آدم دخل الموت بالخطية، وبعد آدم صار الموت هو سبب الخطية، أي بحث الإنسان الدائب عن الخلود. وفي عبارة بلا غموض يقـــول القديس كيرلس:

> "إن الموت هو العائل الذي يقود الإنسان إلى الموت. هو القوة السلبية التي تسيطر على الحياة حتى أن الموت لا يحتاج إلى قوة خارجية، بل يعمل بقوته التي سادت على الإنسان، حتى أن "الموت هو أم الخطية" (مجلد ٧٤: D ٧٨٤).

كيف؟ والجواب هو من كلمات القديس كيرلس نفسه:

> "الكل سقط تحت الفساد بسبب التشبه بعصيان آدم" (مجلد ٧٤: A٧٥٨).

وهو يشرح ذلك في فقرة أخرى:

> "حيث أن الموت هجم على من هم مثل آدم، أي الجنس البشري كله. ولأن الجنس البشري منه (آدم) مثل نبات أصاب جذره عطبٌ، فالكل حتماً سوف يذبل (كل الأغصان من هذا الجذر سوف تذبل) لأنها تفرَّعت منه" (مجلد ٧٢: A٧٨٥).

ونجد نفس العبارة في كتابه ضد الذين يشبهون الله بصـــفات إنســـانية (٧٦: ١٠٩٢-١٠٩٧).

ويعود القديس كيرلس إلى كلمات الرسول بولس:

> "إنه كما كان يجب أن يقول إنه حُكم علينا بالموت في آدم بسبب عصيان آدم، والطبيعة الانسانية كلها عانت فيه (آدم) لأنه كان بداية الجنس البشري" (مجلد ٧٤: C٧٨٥).

وأيضاً:

> "وحقاً قال هو (بولس): من الواحد، وفي الواحد دينونة آدم انتشرت إلى

الكل لأن الكل أخطأ مثل خطيته (آدم) لأنه كان جذر الجنس البشري. وكما قلت، الكل سقط في الفساد" (مجلد ٧٤: ٧٨٨).

وأيضاً:

"لقد حُكم علينا جميعاً في آدم – كما ذكرت سابقاً – ومن الجذر الأول انتقل الموت للكل لأن الموت ولد من اللعنة (مجلد ٧٤: C٧٨٨).

لا يجب أن نقرأ شرح أوغسطينوس في كلمات القديس كيرلس الكبير:

عندما يقول الرسول بولس إن آدم هو شبه الآتي، فهو يقصد آدم الأخير الرب يسوع، وعندما يكتب القديس كيرلس معيداً لنا لكمات الرسول بولس، فهو يكتب هكذا:

"آدم هو شبه الآتي، وكما صرنا في آدم، هكذا أيضاً في المسيح نتبرر بالطاعة" (مجلد ٧٤: D٧٨٩).

والمقارنة بين الخطية / آدم، والتبرير / المسيح، ليست مقارنة بين طبيعة وطبيعة أخرى، بل بين نتائج ما حدث في السقوط وما وُهِبَ في تدبير الخلاص. وحتى لا يظن أي قارئ أننا نريد أن نستبعد أوغسطينوس لسبب شخصي، فإن الدليل على أن القديس كيرلس الكبير لا يشرح سقوط الانسان بذات الشرح الأوغسطيني يأتي من القديس كيرلس نفسه، فهو يجيب موضحاً على سؤال لا زال في أذهاننا نحن، وهو:

"كيف إذن صار الكثيرون خطاة بواسطته (آدم)؟ ولماذا وصل إلينا التعدي؟ وكيف يُدان الذين لم يكونوا قد ولدوا بعد؟ لدينا إجابة إلهية تقول: "لا يموت الآباء بسبب خطية الأبناء ولا الأبناء بسبب خطية الآباء، النفس التي تخطئ تموت (تث ٢٤: ١٦) ما معنى هذه الكلمات؟ أليس حقاً أن النفس التي تخطئ تموت؟ ونحن صرنا خطاةً بسبب معصية آدم على هذا النحو:

أولاً لقد خُلقنا لعدم فساد وللحياة. وكان في آدم حياةٌ مقدسة في فردوس النعيم، وكان عقله منشغلاً دائماً بالرؤى الإلهية، وكان الجسد هادئاً ينعم بالسكون، ولم يكن يعرف أي لذة مشينة؛ لأنه لم يكن فيه فوضى المشاعر الغامضة الغريبة. ولكن عندما سقط في الخطية، سقط إلى عمق الفساد، وفوراً، اللذة والدنس أسرعت إلى طبيعة الجسد؛ لأن شريعة الشر تمكَّنت من أعضائنا. عند ذلك صارت الطبيعة مريضة بواسطة خطية التعدي التي للإنسان الأول، أي آدم. وهكذا "صار كثيرين خطاة"، ليس لأنهم اخطأوا؛ لأنهم لم يكن لهم وجود. ولكن لأنهم من نفس الطبيعة التي لآدم، سقطوا تحت شريعة الخطية. وبالإضافة إلى ذلك، كما أن طبيعة الانسان في آدم أسرعت إلى الفساد بالعصيان وسقطت في الأوجاع، هكذا أيضاً نالت الحرية في المسيح؛ لأنها صار مطيعة لله الآب في الذي لم يخطئ (الرب يسوع) (مجلد ٧٤: ٧٨٨ D –٧٨٩ B).

* ولعل الأسئلة التي صاغها القديس كيرلس نفسه تبعده تماماً عن مدرسة وفكر أوغسطينوس الملوث بالمانوية؛ لأنه يقول إن الطبيعة مريضة، والمرض هنا ليس وراثة الخطية؛ لأن حتى كلمة الوراثة لم تكن مطروحة في كتابات الآباء عن الخطية، بل عن ملكوت السموات ... وما أعظم هذه المفارقة.

* وبالطبع الخطية هي عمل إرادي خاص بكل إنسان لا يمكن أن ينتقل إلى آخر ليس بالوراثة، بل بقبول الخطية إرادياً.

* ولعل خاتمة (رو ٥: ٢١) عن مُلك الخطية بالموت؛ لأن الموت هو عرش الخطية، وهي جزءٌ هام من التعليم الأرثوذكسي الذي هُجر في العصر الوسيط بسبب انقطاع التواصل مع تعليم الآباء بسبب الجهل باللغة اليونانية، بل وبالقبطية، ولذلك ضاع منا الوعي بأن هذا المُلك *reigning* للخطية قد أُبيد تماماً.(لأن الموت قد أبيد بالمسيح).

* يقول القديس كيرلس الكبير نفسه في شرح إنجيل يوحنا:

"ملكت الخطية بموتنا وبالتالي صار للموت قوة تزداد بسبب الخطية، ولكن

ربنا ومخلصنا يسوع المسيح جاء، وبالموت أباد الموت، وهو أيضاً أباد الخطية التي لها جذر تجذَّر في طبعنا بسبب الموت" (شرح انجيل يوحنا ١: ٢٩).

هكذا يجب أن نفهم عبارة الرسول بولس أما شوكة الموت فهي الخطية (١كو ١٥: ٥٦).

شوكة الموت أم الخطية؟

* تراها في السعي وراء الشهرة. كأن في الشهرة خلودٌ. طبعاً خلودٌ مزيف من صنع الانسان لا يدوم إلى الأبد.

* الحل بالقوة القاهرة لأن القهر هو امتداد الأنا للسيطرة على الآخرين مما يخلد الذات.

* الملابس المزركشة والألوان الفاقعة لجذب الأنظار.

* حشد الألقاب والمال لعل فيها غلبة الموت.

* جمع أكبر كم من الأموال والمقتنيات، ومع هذا الجمع، نجد تقتيراً وبخلاً شديداً لا يرى احتياجات الفقراء.

* بل لقد اندفع ملايين من البشر وراء الأفلام الجنسية المنحطة، والتي تدور حول الكرة الأرضية، وفي كل بقاع العالم يوجد لها ملايين من الأسرى؛ لأن الجنس هو نوع من استنساخ الشخص، وشعور بالقوة والقهر وإخضاع الآخر. ولعل عبادة الصور التي تظهر على شاشات التلفاز والاجهزة الالكترونية يؤكد لنا أننا كنا فعلاً عبدة أوثان لأننا نحب الصورة، ولا نريد أن نتعامل مع الواقع، أي نحب الصورة التي نريدها وليس الآخر كما هو.

* وتأله القيادات من الإكليروس بالسلطة، وتجاوز حتى ما هو ثابت، هو شوكة الموت التي تقود إلى خطايا لا مجال لسردها هنا.

شوكة الموت الخطية التي دُمرت بالحياة الأبدية وبالقيامة:

يقول القديس كيرلس الكبير:

"لقد صرنا خالدين بقيامتنا، ولن نخطئ، وذلك لأننا كنا مائتين وهو ما جعلنا نخطئ" (شرح رسالة كولوسي ٣: ٥).

"**لقد أخطأنا بسبب الموت لا بسبب خطية آدم**". عبارة يجب أن تدوي لعلها تمسح تهور القديس أوغسطينوس؛ لأن القديس كيرلس الكبير يقول في عظة عيد القيامة (٥: ١١):

"كان من الممكن خلاص الجسد من الموت والفساد، إذا أولاً صارت النفس غير متحولة، وخلصت من شهوات الخطية؛ لأننا وهبنا عدم التحول (الثبات) وصار لنا خلاصاً من الخطية".

الخطية تفسد الجسد وتضع في اعضاء الجسد بذرة أو بذار الشهوات، وهو ما يجعل الانسان يفسد ويموت، ولكن لأن النفس ذاقت الموت، فإنها يجب أن تذوق الحياة الخالدة لكي لا يموت الجسد لأن الجسد استعبد للشهوات وهو ما يفسد النفس بسبب وحدة الوجود الإنساني[١].

أخيراً لعل نشر دراسة الماجستير الخاصة بالباحث *John Townsend* عن شرح الآباء اليونانيين لرسالة رومية ٥: ١٢-٢١ قد تُساهم في علاج التحجر الفكري والخوف من البحث والدراسة. وكان اطلاعي على هذه الدراسة وغيرها هو الحافز على كتابة هذا البحث للأجيال الآتية بعدنا (أوشية الاجتماعات)

الأسباب اللاهوتية والتاريخية لرفض وراثة الخطية:

١- لعل القارئ الذي لم يَعِش أزمة الحداثة وما بعد الحداثة في الغرب، لا يدرك مدى حيرة، بل وعدم قناعة الإنسان المعاصر بفكرة ميلاد أي إنسان حاملاً ذنباً

---

(١) نرجو من المستعبَدين لمدرسة اوغسطينوس دراسة:
John Mayendorff, Byzantine Theology 1974, pages 144-145.

لم يرتكبه. ذنبٌ حدث في الماضي البعيد، أي منذ ٥٥٠٠ عام طبقاً لحساب علماء السبعينية (من خلق آدم إلى المسيح)، يضاف إليها الآن ٢٠٠٠ ليصبح المجموع ٧٠٠٠ سنة، وهو زمن سحيق أياً كانت طريقة حسابه.

ذلك؛ لأن الزمان البعيد هو مجرد فكرة في ذاكرة الإنسان، أو في الكتب، ليس لها مرجعية في الواقع اليومي الذي يحياه في الزمن المعاصر، في الوقت الذي يسعى الجيل الذي ننتمي إليه، محاولاً أن يجد تعريفاً لوجوده الحقيقي، بينما ٥٥٠٠ سنة أو أقل أو أكثر لا تشكل مرجعية تنتمي إلى الواقع المعاش.

إن الموت هو انعدام النمو، أي توقف الحياة العقلية والروحية، وتوقف نمو الحياة الجسدانية حسب قوانين الجسد. والاعتقاد بأن مصدر الخطية هو آدم البعيد هو الذي أدَّى إلى أن تهمل مناهج التربية الكنسية موضوع النمو الإنساني، بينما لم تلتفت هذه المناهج إلى عبارة بولس رسول المسيح "كما في آدم يموت الجميع"، بما فيها من دلالة على أن كل إنسانٍ منَّا هو آدم.

إن المعضلة الحقيقية هي محاولة شرح الواقع بناءً على فكرة عن حدثٍ تم في الماضي السحيق، دون أن ندرك أن آثار ما حدث في الماضي هو ما ترسَّب فينا، أي الموت نفسه. وعلى ذلك، نجد أن التعليم بالخطية الأصلية يُعدُّ سبباً من أسباب أزمة الإنسان المعاصر أمام البحث عن إجابات عن الأسئلة الحائرة التي تعبِّر عنها هذه المعضلة:

* إن عدم توفر الإرادة الحرة، هو أهم جانب في مسئولية الإنسان عن الشر أو الخطية التي ارتكبها.

* وعدم وجود، أو عدم توفر الإرادة الحرة يعني أننا نولد مثقَّلين بذنب لم نرتكبه، والمسألة هنا ليست مسألة عدل أو عدم عدل، بل هي قبل أي شيء آخر تشويه الإنسان بتاريخ قديم لم يكن له يد ولا دخل فيه.

٢– أمَّا عن وراثة الموت، فذلك أسهل وأكثر واقعية، ليس فقط بسبب عمومية الموت، بل لأن تضامن الجنس البشري يحمل في داخله أخطر مسئولية. ومثال ذلك هلاك ملايين البشر في الحرب العالمية الثانية بسبب أخطاء وشرور زعامات مثل

هتلر وموسوليني. بل إذا صدقت المراجع التاريخية في أن ستالين أعدم ٢٠ مليون روسي في برنامج الإصلاح الزراعي وتطهير الاتحاد السوفيتي من خصومه، فإن الانقضاض على النظام الاشتراكي كان حتمياً، بعد أن ذاعت وثائق التعذيب والقتل الجماعي الذي دفعت أسر وأفراد حياتها ثمناً له. نحن نرث ثمار أفعال السابقين. مَن يدمن الخمر ويبدد ثروته، ترث أسرته الفقر. بل لعل انتشار فيروس *HIV* الذي ينتقل بواسطة الاتصالات الجنسية يمس حياة أطفال يولدون بوراثة المرض (انعدام المناعة).

إن تضامن ووحدة الجنس البشري سلباً أو إيجاباً هو الذي يخلق ما لدينا من ظروف انتشار الفساد والشر الذي قد يبدأ بواحد أو أكثر لكي ينتقل بعد ذلك إلى أسرة بل وإلى وطن.

٣– واختراع شر من الشرور ينقل بالتعليم وبالمعاشرة وبالإعلام في عصرنا الحاضر؛ لأن كاميرات التصوير دخلت إلى أدق أسرار الحياة الإنسانية لكي تخلق أسرى اللذات الحسية الذين يريدون الشبع الجنسي، دون التزام أو محبة أو مشاركة حقيقية في الحياة بالزواج وقبول التضحية. هكذا رأينا الشر ينتقل من شخص إلى آخر بواسطة أدوات المعرفة لا بواسطة الخلايا الوراثية *DNA*.

٤– لقد عرضنا للأسباب التاريخية، وهو ما ظهر في تأثير الغنوسية والمانوية على نظرة البعض للجسد واعتباره أداة الشر. لكن الآن، أي في زماننا أصبح هذا الرأي مرفوضاً؛ لأن ما في الجسد مهماً كان، تم زراعته واستوطن في الجسد بواسطة العقل والمشاعر والإرادة، وصار يحارب من زرعه لأنه نشأ بسلطان حرية الإرادة التي رأت أن الشر = الخير وهو العمى الروحي الشائع عندنا كبشر.

وما أكدنا عليه هنا هو أن التعليم بوراثة خطية آدم وذنب آدم هو تطور غربي لم يعرفه الشرق في زمن الآباء. إذن نحن أمام سببين: **الأول** هو توطن المانوية والغنوسية، **والثاني** هو التطور الفكري الغربي نتيجة توطن المانوية بالذات في كتابات القديس اوغسطينوس ونحن لا نؤمن بعصمة أي من قديسي الكنيسة شرقاً أو غرباً.

٥– أما الأسباب اللاهوتية، فهي واضحة كما ذكرنا عبر الصفحات السابقة، ويمكن أن نجمعها كما يلي:

أولاً: إذا كانت مشكلة الإنسان هي وراثة الخطية، فالله يستطيع أن يغير قانون الوراثة وتصبح التوبة كافية. ولكن التوبة كانت وستظل غير كافية، ليس بسبب الخطية، بل بسبب سيادة الموت. هذه السيادة لا يمكن القضاء عليها إلَّا بواسطة التدخل الإلهي المباشر.

ثانياً: لو كانت وراثة الخطية هي المشكلة التي من أجلها جاء المسيح، فنحن جميعاً خطاة حتى بعد الميلاد الثاني، والذي بلا خطية وحده هو المسيح. ولكن لأن الرب يسوع هو وحده بلا خطية وغالب الموت والفساد، فقد نقل إلينا الرب هذا بالشركة في حياته الإلهية المتجسدة.

ثالثاً: لقد أباد الرب الموت بالصلب والقيامة، وبذلك أباد جذر الخطية، أي الموت؛ لأن الجذر الأول الفاسد آدم هو سبب مرض شجرة الأسرة الإنسانية كلها. وقد أصاب الموت البشر بالشر؛ لأن الموت حوَّل الحياة الإنسانية إلى دفاع عن الحياة بأي ثمن، والثمن هو التعدي.

رابعاً: نحن نحتاج إلى اكتشاف ذلك الجذر الذي يدفعنا إلى:

- العدوان
- التصلف
- العناد
- الكذب
- بل والقتل، وغيرها من شرور هي دفاعنا عن كيان ضرب الموت فيه الحياة. وحقاً قال الأب صفرونيوس في أكثر من مناسبة إن الموت هو "الداء الخفي".

نداء

إلى قداسة البابا تواضروس الثاني،
وإلى
الآباء الأرثوذكس في المجمع المقدس لكنيستنا القبطية

أصبحت محاكمة الأنبا بيشوي، ومنعه من الكتابة في مجلة الكرازة ضرورة قصوى.
نحن نحتاج إلى مراجعات حقيقية لكل ما لدينا على قاعدة الحوار،
لا على قاعدة الاتهامات وشهر سيف الحرمان.
الإيمان وديعة في أيديكم،
ولا أريد أن أكتب أكثر من هذا.

دكتور
جورج حبيب بباوي

مراجع تاريخية ولاهوتية ولغوية هامة

Pier Franco Beatrice and Adam Kamesa, The Transmission of Sin, Augustine and the Pre-Augustinian Sources (AAR Religions in Translation) 2013.

Allan D. Fitzgerald, Augustine through the Ages: An Encyclopedia, 2009.

John A McGuckin, The Westminster Handbook to Patristic Theology, 2004.

John Mayendorff, Byzantine Theology, 1977.

John Townsend, “Patristic Commentaries on Rom. 5:12-21 Translation and Analysis” (thesis, St Vladimir’s Seminary, 1967.

Tatha Wiley Original Sin, Origins, Developments, Contemporary Meanings by 2002 Norman Powell Williams, the idea of the Fall and Original sin, 1927.

ملحق

هل ورث الرب يسوع الخطيةَ أو الموت؟[١]

[١] مقال نُشِر رداً على أحد الأسئلة على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية في عام ٢٠١١.

لم تعرف الكنائس الأرثوذكسية قاطبةً موضوع وراثة الخطية، بل منذ بداية العصر المسيحي حتى القرن الثامن عشر كان السائد في الشرق الأرثوذكسي هو: سيادة الموت.

وقد كان أول من استخدم تعبير "الخطية الأصلية" هو القديس أغسطينوس، وهو أول من قرأ النص اللاتيني لرومية ٥: ١٢ حيث أضاف إلى نهاية النص عبارة: "إذ أخطأ الجميع فيه"، أي في آدم. وهكذا علَّم أغسطينوس بوراثة ذنب *Guilt* آدم وليس خطية آدم وحدها (مقالة حرية الإرادة ٣: ١٢١).

وقد قبلت كنيسة روما هذا التعليم في عدة مجامع مكانية.

تعد مقالة الخطية الأصلية في الموسوعة الإنجليزية الخاصة بالقديس أغسطينوس هي أكمل وأشمل ما صدر في العصر الحديث:

Augustine Through The Ages; An Encyclopedia, General editor Allan D. Fitzgerald,1999

راجع ابتداءً من ص ٦٠٧ وما بعدها.

وقد وضعت المقالة كل المراجع والشواهد الخاصة بهذا الموضوع في كل كتابات القديس أغسطينوس.

التجسد الإلهي ووراثة الموت ووراثة الخطية

السؤال عن وراثة الرب يسوع للموت أو الخطية يؤكد عدم تأصُّل واستيعاب التسليم الأرثوذكسي الخاص بالتجسد، وإن كان يؤكد في نفس الوقت تأصُّل التعليم القبطي المعاصر عند شريحة كبيرة من ضحايا الفولكلور، أو التراث الشعبي السائد في

هذا التعليم.

وإذا عدنا إلى التسليم الأرثوذكسي الخاص بالتجسد، نجد أن تجسد ربنا يسوع المسيح هو تجسد طوعي حر، جاء بالإرادة الإلهية الواحدة للثالوث القدوس (يو ٣: ١٦ – غلا ٤: ٤)، فهو مجيءٌ حرٌّ غير مقيد بالتسلسل الجسداني من آدم، أي أن الرب يسوع ليس ثمرة الولادات المتعاقبة مثل البطاركة وملوك بني إسرائيل. لذلك يجب وضع كلمات القديس كيرلس السكندري موضع الاهتمام. فقد ذكر القديس كيرلس في الفصل الخامس من كتاب المسيح واحد، وتحت عنوان: لماذا وُلِدَ من عذراء؟ سبب الحبل البتولي بالرب، وهذا هو شرح ق كيرلس[١]:

(أ) قال المسيح في موضع معين "ألم تقرأوا أنه في البدء خلقهما ذكراً وأنثى" (متى ١٩: ٤) والرسول بولس الإلهي يكتب "ليكن الزواج مكرماً عند الكل، الفراش نقي" (عبرانيين ١٣: ٤). **فكيف استطاع الكلمة الابن الوحيد أن يدخل عالمنا متجسداً؟ وكيف أخذ شكلنا بدون السماح للقوانين الخاصة بالطبيعة الإنسانية أن تظل سارية المفعول في ميلاده وتجسده؟ لماذا لم يأخذ جسده من زواج، فهو ليس ثمرة عرس، بل هو من العذراء الفائقة تجسد بالروح القدس**، حسب ما هو مكتوب "قوة العلي تظللك" (لوقا ١: ٣٥). فالله لم يحتقر الزواج، بل حفظ له بركةً خاصةً، لكن لماذا عندما تجسد الكلمة الله من عذراء، تجسد بالروح القدس وليس من الزيجة؟

(ب) لا أعرف.

(أ) غريب ألا يبدو هذا واضحاً لكل من يدرس الإيمان؟ **لقد جاء الابن وصار إنساناً لكي يحول طبيعتنا فيه هو، وابتدأ أولاً بالميلاد الذي جعله مقدساً وعجيباً**، إذ جعله ميلاداً للحياة، فوُلِدَ هو أولاً من الروح القدس،

---

(١) القديس كيرلس السكندري: المسيح واحد – ترجمة د. جورج حبيب بباوي – مركز دراسات الآباء بالقاهرة، يناير ١٩٨٧، ص ٢٩ – ٣٠. ويلاحظ أن هذا النص صاغه القديس كيرلس في صورة حوار بينه، وقد رمز لنفسه فيه بحرف (أ)، وبين شخصٌ آخر رمز له القديس كيرلس بحرف (ب).

وأنا أعني طبعاً جسده، لكي ننال نحن هذه النعمة، وتصل إلينا منه لكي نولد ليس من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل بل من الله" (يوحنا ١: ١٣). **وبالروح القدس تولد نفوسنا ميلاداً جديداً روحياً**، مشابهاً لميلاد ذاك الذي هو بالطبيعة وبالحق الابن، وبذلك ندعو الله أباً. ويؤهلنا هذا الميلاد الجديد أن نبقى في عدم انحلال لأننا امتلكنا ليس طبيعة آدم الأول الذي فيه انحللنا، بل طبيعة آدم الثاني. وحقاً قال المسيح مرةً: "لا تدعوا لكم أباً على الأرض لأن أباكم واحد وهو الذي في السموات" (متى ٢٣: ٩). ففيه هو قد ولدنا ميلاداً جديداً عندما نزل إلى حالتنا لكي يرفعنا إلى كرامته الإلهية، ولذلك قال: "أنا صاعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم" (يوحنا ٢٠: ١٧). والآب الذي في السماء هو أبوه بالطبيعة، ولكنه هو إلهنا نحن، والابن يدعوه كذلك لأن الابن بالطبيعة وبالحق صار إنساناً مثلنا. ويقول عن الآب إنه إلهه حسب إخلائه لنفسه، ولكنه أعطانا أيضاً أباه السماوي كآب لنا كما هو مكتوب: "وأما كل الذين قبلوه أعطاهم سلطاناً أن يصيروا أبناء الله أي الذين يؤمنون باسمه" (يوحنا ١: ١٢). أما إذا أنكرنا – بسبب جهلنا – ميلاد كلمة الله الآب بالجسد مثلنا، والذي صار "متقدماً في كل شيء" (كولوسي ١: ١٨). فعلى شبه مَن سوف نتجدد وسوف نولد من الله بالروح؟ ومن سيصبح الباكورة بالنسبة لنا؟ ومن يستطيع أن يمنحنا كرامة البنوة؟

(ب) أعتقد أنهم سيقولون الكلمة المتجسد.

ما هو تجسد الكلمة:

(أ) كيف تحقق التجسد، إلاَّ إذا صار الكلمة جسداً أي إنساناً، جاعلاً الجسد جسده باتحاد بلا افتراق لكي يكون فعلاً جسده وليس جسد آخر سواه؟ هكذا أعطانا نعمة البنوة وأصبحنا نحن بذلك مولودين من الروح لأن فيه هو أولاً حصلت الطبيعة الإنسانية على هذا الميلاد الروحي، وبولس الإلهي كان يفكر في نفس الموضوع فقال بكل صواب "وكما لبسنا صورة

الترابي، سوف نلبس صورة السماوي" وقال أيضاً "الإنسان الأول من التراب ترابي، والإنسان الثاني من السماء. ولكن كما الترابيون مثل الترابي، كذلك سيكون السمائيون مثل السمائي" (١كورنثوس ١٥: ٤٩ و٤٧ و٤٨). ونحن ترابيون، فينا التراب من آدم الأول الترابي، أي اللعنة والانحلال اللذين بهما أيضاً دخل ناموس الخطية في أعضاء جسدنا. ولكن نحن صرنا سمائيين، وأخذنا هذا في المسيح، لأنه بالطبيعة الله وهو الكلمة من فوق، أي من الله، ونزل إلينا متجسداً بطريقة فائقة. فوُلِدَ بالجسد من الروح، لكي يجعلنا مثله ونصبح قديسين وبلا فساد، وتنزل إلينا النعمة من فوق، ويصبح لنا بداية ثانية وأصلٌ جديدٌ فيه".

من هذا النص يتضح لنا الآتي:

١- كان التجسد حسب كلمات القديس كيرلس هو "تحول في الطبيعة الإنسانية"، وهو تحول حدث في الطبيعة الإنسانية التي ولدت من القديسة مريم.

٢- كان ميلاده هو "ميلاداً للحياة ... لكي ننال نحن هذه النعمة وتصل إلينا"، وبقية الفقرة ذات دلالة هامة "وتصل إلينا منه لكي نولد ليس من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل بل من الله (يو ١: ١٣)".

٣- "وبالروح القدس تولد نفوسنا ميلاداً جديداً".

إذن ماذا حدث للطبيعة القابلة للموت التي ماتت على الصليب؟ بالعودة إلى محاضرات شرح تجسد الكلمة، يجد القارئ ما يأتي:

أولاً: القبول الإرادي لابن الله الكلمة لأن يتجسد، يجعل تجسده خاضعاً لقوة وإرادة اللاهوت. فالمسيح ليس محصلة أو ثمرة اتحاد طبائع يتم حسب قوانين الطبائع، بل هو أقنوم الكلمة الذي بإرادته الحرة قَبِلَ الطبيعة المائتة واتحد بها بقوة ومحبة إلوهيته للآب وللبشر، وهي أيضاً محبة واحدة لا تقبل الانقسام أو الفصل.

ثانياً: كان للرب إرادة حرة إنسانية، ولكنها لم تكن إرادة الطبيعة الإنسانية التي تحيا بدون اللاهوت مثل إرادتنا نحن قبل المعمودية، بل الإرادة الحرة الإنسانية لأقنوم الكلمة المتجسد التي تأخذ حريتها من الطاعة للآب ومن محبة الآب، المحبة

الكاملة، إنسانياً وإلهياً أيضاً. هذه المحبة لا تسمح بالابتعاد عن الله.

ثالثاً: في نص جميل شعري -حسب الإيقاع اليوناني- يقول الرسول بولس في فيليبي ٢: ٦ – ٨:

الّذِي إِذْ كَانَ فِي صُورَةِ اللهِ،
لَمْ يَحْسِبْ خُلْسَةً أَنْ يَكُونَ مُعَادِلاً لِلهِ.
لكِنَّهُ أَخْلَى نَفْسَهُ،
آخِذًا صُورَةَ عَبْدٍ، صَائِراً فِي شِبْهِ النَّاسِ.
وَإِذْ وُجِدَ فِي الْهَيْئَةِ كَإِنْسَانٍ،
وَضَعَ نَفْسَهُ وَأَطَاعَ حَتَّى الْمَوْتَ، مَوْتَ الصَّلِيبِ".

هذه حركة ديناميكية للمحبة الإلهية التي لا تجعل للذات مكان المركز، بل إخلاء الذات، واتخاذ صورة العبد، والحياة كإنسان، والطاعة حتى الموت.

كل هذه معاً تجعل المسيح بلا خطية لأننا نحن العبيد لدينا العكس: مركزية الذات، رفض صورة العبد، الحياة تحت عبودية الأهواء، واختيار الذات وسيلة وغاية، العصيان حتى الموت، موت العصاة، ولذلك يقول الرسول:

"لِذلِكَ رَفَّعَهُ اللهُ أَيْضاً،
وَأَعْطَاهُ اسْماً فَوْقَ كُلِّ اسْمٍ (يهوة)؛
لِكَيْ تَجْثُوَ بِاسْمِ يَسُوعَ كُلُّ رُكْبَةٍ مِمَّنْ فِي السَّمَاءِ وَمَنْ عَلَى الأَرْضِ وَمَنْ تَحْتَ الأَرْضِ،
وَيَعْتَرِفَ كُلُّ لِسَانٍ أَنَّ يَسُوعَ الْمَسِيحَ هُوَ رَبٌّ لِمَجْدِ اللهِ الآبِ".

لأن المجد الذي أخذه من الآب هو ذات مجد الآب.

رابعاً: كلمات فيلبي ٢: ٦ – ٧ هي عكس ما حدث في تك ٣: ١ – ١٩)[1]؛ لأن الذي خُلِقَ حسب صورة الله، أي آدم، رفض الصورة والمثال، بينما

(١) "وَكَانَتِ الْحَيَّةُ أَحْيَلَ جَمِيعِ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ الَّتِي عَمِلَهَا الرَّبُّ الإِلهُ، فَقَالَتْ لِلْمَرْأَةِ: «أَحَقًّا قَالَ اللهُ لاَ تَأْكُلاَ مِنْ كُلِّ شَجَرِ الْجَنَّةِ؟» فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ لِلْحَيَّةِ: "مِنْ ثَمَرِ شَجَرِ الْجَنَّةِ نَأْكُلُ، وَأَمَّا ثَمَرُ الشَّجَرَةِ الَّتِي فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ فَقَالَ اللهُ: لاَ تَأْكُلاَ مِنْهُ وَلاَ تَمَسَّاهُ لِئَلاَّ تَمُوتَا». فَقَالَتِ الْحَيَّةُ لِلْمَرْأَةِ: «لَنْ تَمُوتَا! بَلِ اللهُ عَالِمٌ أَنَّهُ يَوْمَ تَأْكُلاَنِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ

الذي هو صورة الله الحقيقية (عب ١: ٣)، لم يجعل هذه الصورة عائقاً أمام الخلاص وطاعة الآب كعبد.

طلب آدم الحياة حسب صورته الذاتية التي اختارها، فسقط في فراغ الأنا، أي جحيم النفس والذات التي تحيا حسب مركز الوعي والحياة بدون الله.

طلب المسيح الحياة حسب محبته ومحبة الآب، لذلك نال المجد وبذلك غلب الخطية والموت.

أخيراً: تؤكد تجارب الرب في البرية أثناء صومه الأربعيني أن ما حدث في تك ٣: ١ – ١٩ قد انقضى، فقد رفض الرب الحياة الآتية من الخبز وحده. وكلمة "وحده" هامة، فهي مصدر الحياة الذي جعله آدم فوق مصدر الحياة الأبدي، أي الله نفسه.

ورفض المسيح السيادة على العالم بالسجود لمن يملك العالم، وبذلك كسر شوكة الكبرياء.

رفض أن يجرِّب أمانة الله، وعاش في طاعة كاملة؛ لأن الطاعة الكاملة هي طاعة المحبة[1].

أَعْيُنُكُمَا وَتَكُونَانِ كَاللهِ عَارِفَيْنِ الْخَيْرَ وَالشَّرِّ». فَرَأَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ الشَّجَرَةَ جَيِّدَةٌ لِلأَكْلِ، وَأَنَّهَا بَهجَةٌ لِلْعُيُونِ، وَأَنَّ الشَّجَرَةَ شَهِيَّةٌ لِلنَّظَرِ. فَأَخَذَتْ مِنْ ثَمَرِهَا وَأَكَلَتْ، وَأَعْطَتْ رَجُلَهَا أَيْضًا مَعَهَا فَأَكَلَ. فَانْفَتَحَتْ أَعْيُنُهُمَا وَعَلِمَا أَنَّهُمَا عُرْيَانَانِ. فَخَاطَا أَوْرَاقَ تِينٍ وَصَنَعَا لأَنْفُسِهِمَا مَآزِرَ. وَسَمِعَا صَوْتَ الرَّبِّ الإِلهِ مَاشِيًا فِي الْجَنَّةِ عِنْدَ هُبُوبِ رِيحِ النَّهَارِ، فَاخْتَبَأَ آدَمُ وَامْرَأَتُهُ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ الإِلهِ فِي وَسَطِ شَجَرِ الْجَنَّةِ. فَنَادَى الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ وَقَالَ لَهُ: «أَيْنَ أَنْتَ؟». فَقَالَ: «سَمِعْتُ صَوْتَكَ فِي الْجَنَّةِ فَخَشِيتُ، لأَنِّي عُرْيَانٌ فَاخْتَبَأْتُ». فَقَالَ: «مَنْ أَعْلَمَكَ أَنَّكَ عُرْيَانٌ؟ هَلْ أَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ أَنْ لاَ تَأْكُلَ مِنْهَا؟» فَقَالَ آدَمُ: «الْمَرْأَةُ الَّتِي جَعَلْتَهَا مَعِي هِيَ أَعْطَتْنِي مِنَ الشَّجَرَةِ فَأَكَلْتُ». فَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ لِلْمَرْأَةِ: «مَا هذَا الَّذِي فَعَلْتِ؟» فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: «الْحَيَّةُ غَرَّتْنِي فَأَكَلْتُ». فَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ لِلْحَيَّةِ: «لأَنَّكِ فَعَلْتِ هذَا، مَلْعُونَةٌ أَنْتِ مِنْ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ وَمِنْ جَمِيعِ وُحُوشِ الْبَرِّيَّةِ. عَلَى بَطْنِكِ تَسْعَيْنَ وَتُرَابًا تَأْكُلِينَ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكِ. وَأَضَعُ عَدَاوَةً بَيْنَكِ وَبَيْنَ الْمَرْأَةِ، وَبَيْنَ نَسْلِكِ وَنَسْلِهَا. هُوَ يَسْحَقُ رَأْسَكِ، وَأَنْتِ تَسْحَقِينَ عَقِبَهُ». وَقَالَ لِلْمَرْأَةِ: «تَكْثِيرًا أُكَثِّرُ أَتْعَابَ حَبَلِكِ، بِالْوَجَعِ تَلِدِينَ أَوْلاَدًا. وَإِلَى رَجُلِكِ يَكُونُ اشْتِيَاقُكِ وَهُوَ يَسُودُ عَلَيْكِ». وَقَالَ لآدَمَ: «لأَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِ امْرَأَتِكَ وَأَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ قَائِلاً: لاَ تَأْكُلْ مِنْهَا، مَلْعُونَةٌ الأَرْضُ بِسَبَبِكَ. بِالتَّعَبِ تَأْكُلُ مِنْهَا كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ. وَشَوْكًا وَحَسَكًا تُنْبِتُ لَكَ، وَتَأْكُلُ عُشْبَ الْحَقْلِ. بِعَرَقِ وَجْهِكَ تَأْكُلُ خُبْزًا حَتَّى تَعُودَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُخِذْتَ مِنْهَا. لأَنَّكَ تُرَابٌ، وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ".

(١) يوجد أربعة أنواع للطاعة: ١- طاعة العبيد للسيد.

٢- طاعة المتساويين في الكرامة.

وبسبب طاعة ومحبة الرب: قَبِلَ الرب الموت طوعاً (يو ١٠: ١٨)، ومات وهو في سرور المحبة (عب ١٢: ٢)، فلا مكان للخطية بسبب المحبة والطاعة. وقبول الموت الاختياري بالإرادة الحرة، هو ما يجعل كل الكنائس الأرثوذكسية تنشد:

"بالموت داس الموت".

لأن الإرادة الحرة لأقنوم الله الكلمة قَبلت الموت لكي تثمر الحياة. خضعت للموت بحرية وليس بسبب قوانين الطبيعة؛ لكي تقوم الحياة ظافرة بالخلود.

لعل كلمات الرب يسوع: "لَيْسَ أَحَدٌ يَأْخُذُهَا مِنِّي، بَلْ أَضَعُهَا أَنَا مِنْ ذَاتِي. لِي سُلْطَانٌ أَنْ أَضَعَهَا وَلِي سُلْطَانٌ أَنْ آخُذَهَا أَيْضاً" (يو ١٠: ١٨)، هي التي تجعل هذا السلطان يهدم الجحيم، ولذلك يقول الرسول بطرس: "لم يكن ممكناً أن يمسكه الموت" (راجع أع ٢: ٢٢ – ٢٥ – ٢٦). لقد نقض أوجاع الموت (أع ٢: ٢٤)؛ لأنه كان حراً. وليس تحت دينونة الموت؛ لأنه لم يخطئ. وهو لم يخطئ؛ لأنه عاش حراً في حرية محبته وحرية طاعته للآب.

هل قاوم المسيح الخطية مثلنا؟

نعم، ولا.

نعم، أي المقاومة التي فيها شعلة المحبة للآب.

لا؛ لأنه لم يكن يعاني من الانقسام في الإرادة وفي المحبة مثلنا؛ لأنه في تجاربه في البرية كان الرد سريعاً وحاسماً وبلا تردد. وحتى في البستان كانت الصلاة هي لطلب إرادة الآب، وهذا يؤكد أن له ذات إرادة الآب، وإلاَّ فكيف استطاع أن يطيع هذه الإرادة؟ يقول الرسول في العبرانيين: "إذ هو قد تألم مجرباً يقدر أن يعين المجربين أيضاً"، لكن يظل الفرق الواضح هو القلب المنقسم الذي تسوده المشاعر والانفعالات.

في الأدب النسكي الأرثوذكسي: "من تسود إرادته على ميوله وعواطفه

٣- الطاعة للقوانين المدنية.

٤- طاعة المحبة، حيث يقبل الأعظم أن يخدم ويقدم ذاته لمن هو أقل، وهو ما أعلنه ربنا يسوع في حياته وموته (عب ١٢: ٢) من أجل السرور الموضوع أمامه احتمل الصليب ... ".

ومشاعره، هو من يحمل الصليب بوعي، ولكن من تسود عواطفه وميوله ومشـــاعره على إرادته هو من ترك الصليب، ويظن أنه يحمله عندما يريد".